يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

تقدم العدد الأول من :

مكتبة القصة القصيرة

ترجمة كاملة لمجموعة من روائع
أشهر كتاب القصة العالميين

قصص من تولستوي

١/ ٩٦١٢٠

ليو تولستوي:

كلمات الله الثلاث

وقصص أخرى

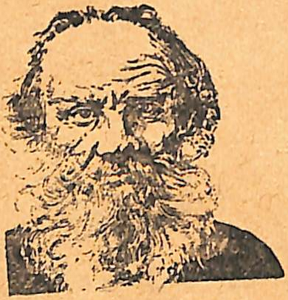

MASTER AND MAN

BY

LEO N. TOLSTOI

عدد خاص ممتاز

الثمن: ١٥ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صـدر منها سـتة وسـتون كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـادى وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنـوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب السادس والستون

كلمات الله الثلاث

وقصص اخرى

ترجمة : زكى شنوده المحامى

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
كلمات الله الثلاث	٧
.. أعقل من الكبار !	٤٠
الله والناس !	٤٣
خاطىء على أبواب الفردوس !	٤٧
القاتل	٥١
حبة القمح	٦٤
شوط الحياة	٦٩
حكمة سولون	٩٥
الشيطان الصغير	٩٩
السعادة	١٠٥
هذه هى الحياة	١١٣
السمعة	١٨١

کلمات اللہ
الثلاث

« نحن نعلم اننا قد انتقلنا من الموت الى الحياة لأننا نحب الاخوة . من لا يحب اخاه يبق فى الموت .. وأما من كان له معيشة العالم ورأى أخاه محتاجا واغلق احشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه .

« يا اولادى لا تحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق .

« ايها الاحباء لنحب بعضنا بعضا لأن المحبة هى من الله ، وكل من يحب فقد ولد من الله ، ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.

« الله لم يره احد . ان احب بعضنا ، فالله يثبت فينا .

« الله محبة ومن يثبت فى المحبة ، يثبت فى الله والله فيه .

« ان قال أحد انه يحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ، لأن من لا يحب اخاه الذى أبصره فكيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره . »

(رسالة يوحنا الاولى – اصحاح ٣ و ٤)

- ١ -

• حدث ذات مرة ، ان كان اسكاف يقطن مع زوجته وأولاده فى دار أحد الفلاحين ، لأنه لم يكن يملك دارا ولا ارضا ، وانما كان يعيش من السكافة وحدها .. وكان الخبز غاليا ، والعمل رخيصا ، فكان – من ثم – يعيش من اليد للفم ، ويشاطر زوجته ثوبا واحدا من جلد الشاة ، وكان هذا الثوب مع ذلك باليا رثا . الا انه راح – فى العامين الأخيرين – يقتصد ليشترى جلدا يصنع منه ثوبا جديدا . فلما اقبل الخريف ، كان قد اجتمع لديه مبلغ ضئيل – قدره ثلاثة روبلات ورقية – خبأها فى صندوق زوجته .. فضلا عن خمسة روبلات وعشرين « كوبيك » ، كان يدين

بها بعض الفلاحين فى القرية .

وفى ذات صباح ، نهض من نومه ، فأفطر ، ثم ارتدى سترة زوجته فوق قميصه ، ولبس عباءته الصوفية فوقهما . وأودع الروبلات الثلاثة جيبه ، وقطع لنفسه عصاة للسير . ثم مضى ، وهو يفكر فى نفسه قائلا : « سوف أحصل – قبل كل شىء – على الروبلات الخمسة من أولئك الفلاحين ، ثم أضيف اليها الروبلات الثلاثة التى معى ، فأشترى بالمبلغ جلد شاة أصنع منه ثوبا جديدا » .

واذ بلغ القرية ، راح يطلب الفلاح الأول . ولكنه لم يجده فى داره ، وان وعدته زوجته بأنها ستبعث اليه بالنقود قبل انقضاء الاسبوع .. فذهب الى كوخ فلاح آخر ، الا أن هذا اقسم بالله العظيم أنه مفلس . ومن ثم فأن كل ما امكنه – فى ذلك اليوم – هو اقتضاء دين صغير قدره عشرون كوبيك ، اجر رتق حذاء .

وازاء عجز الاسكاف عن الحصول على نقوده ، راوده الأمل فى أن يقبل بائع الجلود أن يعطيه جلدا ويمهله فى دفع ثمنه . الا أن البائع رفض قائلا : « أعطنى المبلغ كله نقدا ، تأخذ أى جلد تشاء .. أننا جميعا نعلم كم يصعب اقتضاء دين » .

وهكذا عجز الاسكاف عن أن يفعل شيئا فى ذلك الصباح ، اكثر من حصوله على العشرين « كوبيك » اجر رتق الحذاء ، فوق انه تسلم حذاء آخر لاصلاحه . فاكتأب لهذه النتيجة أيما اكتئاب ، وذهب الى الحانة فأنفق العشرين كوبيك فى احتساء « الفودكا » ، ثم انكفأ عائدا الى بيته . وكان الجو قد بدا له – فى الصباح – باردا زمهريرا ، الا انه أحس – وهو عائد – بالدفء يسرى فى أوصاله ، فلم يعد بحاجة

حتى لأى رداء . ومن ثم راح يحدث نفسه ، وهو يمشى ضاربا أكوام الجليد بعصاه التى كان يمسكها بأحدى يديه ، ومؤرجحا الحذاء من رباطه باليد الأخرى ، قائلا :

ـ اننى لأشعر بالدفء التام دون جلد شاة . لقد شربت قدرا ضئيلا جدا ؛ ومع ذلك فأنه يفور ويغلى فى عروقى . نعم ، لست بحاجة الى جلد شاة . فأنا الآن على خير ما يرام . فما الذى يضايقنى ؟.. ان فى أمكانى أن أروح واجىء دون هذا الثوب . فلن اريده طول حياتى . **فقط هنالك ـ بالطبع ـ زوجتى .. فانها لن تفتأ مكتئبة لذلك . حقا ، أنه لمن المخزى أن تصنع شيئا لشخص ما ، ثم لا يعطيك شيئا !..** ولكن ، صبرك يا صديقى الفاضل . فان لم تأتنى بنقودى هذا الاسبوع فسأطيح بغطاء رأسك .. بالله العظيم سأفعل ذلك !.. وذاك الآخر كذلك ، لقد دفع لى عشرين كوبيك حقيرة ، فماذا يملك المرء أن يفعل بعشرين كوبيك ؟.. يشرب بها . هذا كل ما هناك . لقد أقسم أنه مفلس .. ولكن ، كان يجب أن أقول له : « أنت مفلس اذن ، ولست على ما يرام ؟.. ولكنك تملك كوخا ، وقطيعا من الأغنام ، وكل شىء . أما أنا فلا أملك الا الجلباب الذى على بدنى .. أنت تزرع قمحك ، أما أنا فمضطر لأن اشتريه .. مضطر لأن أدفع ثلاثة روبلات فى الاسبوع لأجل الخبز وحده . وحين أبلغ بيتى اليوم سيكون الخبز قد نفد .. ولا مناص من أن أنفق روبلا ونصف روبل أخرى .. ادفع لى ما عليك !

***

هكذا راح الاسكاف يحدث نفسه وهو يمشى ، حتى اقترب من الكنيسة القائمة على جانب الطريق ، عند المنحنى

.. وهنالك لفت نظره شىء ما ، يبدو أبيض اللون فى الظلمة الجاثمة ، فراح يحدق ثم يحدق فى ذلك الشىء الذى لم يكن يتبينه، قائلا فى نفسه : « لم تكن هنا أية صخرة أو ما اليها ، فهل هو ثور يا ترى ؟.. كلا . انه لا يبدو كذلك . أنه يبدو ذا رأس كرأس الانسان ، ولكنه أبيض .. كله . ثم ، ما الذى يجىء بأنسان هنا ؟ »

أقترب خطوة او اثنتين ، وقد أصبح فى امكانه الآن ان يميز ذلك الشىء . **فيا العجب !.. انه رجل .. انه ــ سواء أكان حيا أو ميتا ــ رجل يجلس بلا حراك ، وهو عريان تماما ، وظهره الى الكنيسة** .. اضطربت أعصاب الاسكاف وهو يقول فى نفسه : « لابد أن أحدا قتله ، واخذ نقوده ، ثم ألقى جثته هنا .. فاذهب ، حتى لا تكون الضحية التالية ! »

وانطلق الاسكاف مبتعدا عن الكنيسة ، حتى اختفى الرجل عن نظره .. الا انه ما لبث أن توقف ، ورجع خطوة أو اثنتين ، ثم راح يحملق مرة أخرى ناحيته ، وقد رآه يجلس منتصبا ، ويحرك جسده جيئة وذهابا كأنما يتفرس فيه ويحاول أن يبصره . فازداد خوفه وراح يحاور نفسه قائلا : « هل أقترب منه أو أذهب ؟.. اذا اقتربت منه فالله وحده يعلم ما الذى قد يحدث لى . من أين لى أن أعرف من عساه يكون .. أنه لا يمكن ان يقصد خيرا فى هذا المكان ، واذا اقتربت منه فقد يثب على ويخنقنى قبل ان أنجو بنفسى .. **وحتى اذا لم يخنقنى ، فقد تنشب بيننا معركة حامية . ماذا يملك للمرء أن يفعل مع رجل عريان ؟ لن استطيع أن أتخلص منه حتى يأخذ كل ما عندى .. فليحمنى الله ! »**

واسرع الخطى ، حتى أوشك أن يتجاوز الكنيسة ، الا أن ضميره بدأ يؤنبه ، وراح يقول فى نفسه : « ماذا جـــرى لك ياسيمون ؟.. قد يكون الرجل بائسا يعالج ســـكرات الموت ، فمالك تبتعد عنه هكذا ، كما لو كنت خائفا منه ؟.. هل أنت الى هذا الحد عظيم الثروة ، حتى تتحوط ممن عساه ان يسرق كنوزك ونفائسك ؟.. ياللعار يا سيمون ! »

– ٢ –

• **وعاد** فاقترب من الرجل ، وراح يتفرس فيه . واذذاك تبين أنه شاب فى مستهل حياته ، وأن جسمه سليم لا أثر فيه لأى اعتداء أو عنف .. وقد بدا مرتجف الاوصال من البرد والخوف ، وهو جالس يحدق أمامــه دون أن يلتفت الى الاسكاف الذى راح يقترب منـــــه .. وكأنما كان من الضعف بدرجة يعجز معها عن أن يحول عينيه ناحيته . على أنه ـ ما ان وصل سيمون اليه ـ حتى رفع رأسه فجأة ، وكأنه أفاق لتوه من اغماء طويل ، وفتح عينيه على سعتهما وحدق بهما فى وجه سيمون . وعندئذ بادر هذا فى الحال ، فألقى بالحذاء الذى كان فى يده ، وراح يخلع العبــاءة التى عليه قائلا : « ما هذا ؟.. ينبغى أن يكون لك ما تســـتتر به . هيا ! » . وأمسك بالرجل من تحت ابطيه ، وحاول أن يرفعه . بيد أن الرجل انتصب دون معــاونة ، وقد تبين سيمون ـ عندئذ ـ أنه نحيف ونظيف ولا أثر فى رجليه أو ذراعيه لأى اعتداء ، ووجهـــه هادىء ولطيف . وقد ألقى الاسكاف عبــــاءته على كتفى الرجل ، حتى اذا ألفاه يجد صعوبة فى العثور على كميها ، أعانه على ادخال ذراعيه فيهما ، وحبك الرداء وأحكمه حوله . **ثم خلع قلنسوته البالية وكاد**

أن يضعها على رأس الرجل العارى ، لولا أن شعر فى هـذه اللحظة بالبرد يقرص جلد رأسه ، ففكر فى نفسه قائلا : «اننى أصـــلع تماما ، فى حين انه ذو شـعر طويل مجعـد » ..
ثم أعاد قلنسوته الى رأسه ، وعاد يقـول فى نفسه : « لعل الافضل أن البسه هذا الحذاء » . ثم جلس وألبسه اياه ، والتفت اليـه قائلا : « والآن قم يا أخى ، وسر معى لتشعر بالدفء . ولكن ، هل تقوى على الحركة ؟ »
فنظر الرجل بلطف الى سيمون ، ولكنه لم يقل شيئا ، فسأله هذا قائلا : « لماذا لا تتكلم ؟.. لن يمكننا أن نقضى الشتاء هنا ، فتعال معى الى بيتى !.. توكأ على عصاى اذا كنت تستشعر الضعف ، وهيا يا صديقى ! »
وعندئذ نهض الرجل ومشى فى ســـهولة ، دون أن يتمهل .. وفيما كانا يسيران ، سأله ســيمون قائلا : « من أين أتيت ؟ » . فأجابه قائلا : « من غير هذا المكان » .
– اننى ادرك هذا ، فأنا أعرف أهل هذه الناحية جميعا . ولكن ما الذى ألقى بك هنا بجانب الكنيسة ؟
فأجابه قائلا : **« لست أملك أن أقول »** .
– لابد أن أحدا هاجمك اذن !
– كلا . لم يهاجمنى أحد . وانما كان الله يعاقبنى !
– طبعا ، كل شىء يأتى من الله ، وعلينا أن نذعن لمشيئته . ومع ذلك فالى أين كنت ذاهبا ؟
– الى هنا !
واستولت الدهشة على سيمون ، لأن الرجـــل لم يكن يبدو ماكرا ولا خبيثا ، بل كان مؤدبا فى كلامه ، وان أبى أن يقول شيئا ابدا عن نفسه . فقال سيمون فى نفســـه : « هيهات للانسان أن يعرف كيف تجرى الامور فى هـــذا

العالم !-» . ثم استطرد قائلا لرفيقه : « حسنا . تعال الى منزلى الآن .. ولك أن تمضى الى حيث شئت فيما بعد » .

وواصل السير ، فلم يبد الغريب أية محاولة لأن يتركه ، وانما سار بجانبه . وكانت الريح قد بدأت تهب وتتسرب خلال ثوب سيمون ، فأودت بأثر الخمر التى كانت تدفئه وتركته يرتجف ويلهث من البرد ، وهو يوسع الخطى ، ويحكم لف نفسه بسترة زوجته ، قائلا فى نفسه : « هذا هو الذى صنعه بى ذلك الجلد العزيز !.. لقد خرجت لابتياعه، وها أنذا عائد بلا شىء ، ولا حتى برداء ادثر به ظهرى .. فضلا عن اننى أتيت معى برجل عريان !.. اننى لخائف من غضب ماترينا » .. واربكته هذه الفكرة الاخيرة وآذت اعصابه .. الا انه حين أدار عينيه الى الرجل الغريب ، تذكر النظرة التى رمقه بها عند الكنيسة ، ووثب قلبه من الفرح .

- ٣ -

• **كانت** زوجة سيمون قد انتهت من واجباتها مبكرة فى ذلك اليوم ، فقطعت الاخشاب للنار ، وأحضرت الماء ، وأطعمت الاطفال ، وأعدت لنفسها شيئا تأكله . ثم راحت تسائل نفسها : هل تضنع الخبز اليوم أو غدا ؟.. كانت قطعة كبيرة منه قد تبقت ، فقالت لنفسها : « اذا تناول سيمون الغداء فى الخارج ، فلن يأكل كثيرا فى العشاء ، ومن ثم فسيتبقى من الخبز شطر للغد » .. وراحت تدير قطعة الخبز بين يديها ، ثم حزمت رأيها قائلة : « لن أصنع خبزا اليوم ، فلم يبق من الادام الا ما يكفى رغيفا واحدا . وعلى ذلك ففى امكاننا أن ننتظر الى يوم الجمعة » .

ومن ثم وضعت قطعة الخبز جانبا ، وجلست الى المنضدة

تخيط رقعة فى قميص زوجها . وبينذاك راحت تفكر فى سيمون ، متسائلة عما اذا كان قد اشترى جلد شاة لصنع ثوب جديد . وقالت فى نفسها : ((أرجو ألا يغشه بائع الجلود ، فزوجى ساذج جدا ، ولا يمكنه أن يغش أحدا ، وان كان فى وسع طفل صغير أن يقوده من أنفه . وليست الثمانية روبلات بالمبلغ البسيط ، فهى كافية لشراء جلد جيد . لقد قضيت الشتاء كله بغير ثوب .. فلم يكن بوسعى أن أذهب الى الترعة ، أو الى أى مكان .. وحتى هذا الصباح ، خرج سيمون بكل ثيابنا ، ولم يترك لى ما ألبسه . وهاهوذا قد تأخر فى العودة كذلك .. لقد آن له أن يعود ؛ وأرجو الا يكون قد ذهب يلهو ويسكر ، ذلك العربيد)) !

على ان هذه الفكرة ' تكد تخطر لها ، حتى سمعت وطأ الاقدام على السلم فى الخارج ، فخرجت الى الردهة . وهنالك أبصرت شخصين يدخلان .. أحدهما زوجها ، والآخر رجل عارى الرأس ، يغيب قدميه فى خفين من اللباد .

وللتو ، لمحت تلك البسمة التى ترتسم على وجه زوجها حين يشرب الفودكا ، فقالت فى نفسها : ((لقد كان يعربد اذن)) !.. حتى اذا تبينت أن عباءته ليست عليه كذلك ، ولا شىء فى يده ، تأوه قلبها بين ضلوعها ، وقالت فى نفسها : ((لقد سكر بالنقود جميعا ، وقد كان يتسكع مع هذا الافاق . وهاهوذا يأتى به الى البيت كذلك !))

وادخلتهما الى الكوخ ، ودخلت خلفهما . وراحت تتطلع الى الغريب وقد بدا لها نحيفا ، ضعيفا ، يرتدى عباءتهما ، وليس على بدنه سواها ، ولا على راسه غطاء .. وكان يقف ساكنا ، وعيناه الى الأرض ، فقالت ماترينا فى نفسها :

« أنه ليبدو مرتبكا ، ولا يمكن أن يكون شريفا ! »

وعبست وتجهمت .. ووقفت قــرب الموقد ترقب ما يفعلان . وقد خلع سيمون قلنسوته ، وجلس على المقعد كأنما لم يكن فى الامر ما يهم . ثم قال : « حسنا يا ماترينا ، هاتى لنا شيئاً نتعشى به .. هل لديك بعض الحساء ؟ » . ولكن ماترينا ظلت واقفة عند الموقد ، تنظر اليهما — الواحد بعد الآخر — وتهز رأسها هزة تنذر بالشر . وتبين سيمون أن زوجته كانت غاضبة لأمر ما ، ولكنه لم يبد ما ينم عن انه لاحظ شيئا ، وانما أخـــذ الفريب من ذراعه ، قائلا له : « اجلس يا أخى ، لتأكل شيئا ! » .. فجلس الفريب على المقعد بجانب سيمون . والتفت هـــذا الى زوجته قائلا : « هل عندك اى شىء مطبوخ تقدميه لنا ؟ »

اذذاك انفجرت « ماترينا » قائلة : « نعم ، نعم .. عندى شىء مطبوخ ، ولكنه ليس لك . أنك — على ما أرى — قد ســكرت وفقدت وعيك .. فيالك من مأفون !.. **أتذهب لتشترى جلد شاة ، فتعود بغير عبـــاءتك ، ومع شريد عريان . كلا ، ليس عندى عشاء لعربيدين مثلكما ! »**

فقال سيمون : « حسبك ، حسبك ياماترينا ! لماذا تديرين لسانك هـــكذا بحمـاقة ؟ أما كان ينبغى أن تســـأليني — أولا — من يكون الرجل ؟ » .. فأجابته قائلة : « حسنا .. هب أنك أنبأتنى ، فماذا فعلت بالنقود ؟ » . فأمســك سيمون بالعباءة ، وأخرج الروبلات من أحد جيوبها ، وهو يقــول : « هــذه هى النقــود .. ان تروفينوف لم يدفع اليوم ، ولكنه وعد بأن يدفع غدا » .

***

الا أن « ماترينا » ازدادت غضبا مع ذلك . فهو لم يأت معه بالجلد ، وقد القى عباءتها الوحيدة على ظهر رجل عريان ، وجاء به الى البيت كذلك !

واختطفت النقود من على المنضدة ، وجرت لتخفيها وهى تقول : « ليس عندى عشاء لكما .. ليس بوسعى أن أقدم الطعام لكل عربيد عريان يأتى الى هنا » . فقال سيمون : « امسكى لسانك ياماترينا ، وأتيحى لى فرصة أوضح لك فيها الأمر ! » . ولكنها صاحت : « بأى احساس يمكن للانسان أن يستمع الى سكير مجنون ؟.. لقد كنت على حق حين أبيت – فى البداية – أن أتزوج حيوانا عربيدا مثلك !.. لقد أعطتنى أمى بعض الثياب فذهبت أنت وشربت بها !.. وأخذت نقودا لتشترى جلد شاة ، فذهبت وشربت بها كذلك ! »

وقد حاول سيمون عبثا أن يبين لزوجته أنه لم يشرب الا بعشرين «كوبيك» ، وأن يقول لها أين وجد الرجل الغريب ، الا أنها لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، وراحت تقاطعه فى كل كلمة ، وتنكأ قروح عشر سنوات .. **وراحت تقترب منه ثم تقترب ، حتى انقضت عليه أخيرا وأمسكت بردنيه وهى تصيح فيه : « أعطنى سترتى ، فلست أملك غيرها ، وقد سرقتها منى فى الصباح لتلبسها !.. أعطنيها أيها الوغد الزنيم ، قتلك الله ! »**

فسارع سيمون بخلع السترة ، ولكن زوجته لم تنتظره حتى يخرج ذراعيه من كميها ، وانما تشبثت بها وراحت تنتزعها انتزاعا حتى تفتقت مرة أخرى .. وجرت بها ، حتى اذا كانت على وشك أن تغادر الغرفة ، توقفت فجأة .

فقد بدا قلبها يلين ، وارادت — وقد انكسرت حدة غضبها — أن تعرف من كان ذلك الرجل .

— ٤ —

• **لهذا** وقفت ، وقالت : « اذا كان المرء شريفا ، فانه لايسير هكذا بلا قميص يستره . ولو أنك كنت أهلا اليوم لأى خير ، لقلت لى فى الحال من أين التقطت هذا الفندور ! » . فأجاب سيمون : « حسنا جدا . سأقول لك ذلك الآن : فحين كنت مارا بالكنيسة ، وجدت هذا الرجل يرقد عريانا . وينتفض من البرد . ولابد أنك تدركين أننا لسنا فى الصيف حتى يمكن لانسان أن يظل عريانا ، ولولا أن قادنى الله اليه ، لكان قد هلك من البرد . أما وقد رأيته على هذه الحال فقولى لى ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟.. لقد أخذته ، وألبسته ، وجئت به هنا . هذا كل شىء . فهدئى أعصابك ياماترينا لأن انسياقك وراء الغضب هكذا خطيئة واثم . وتذكرى أننا جميعا لابد أن نموت يوما ما ! »

وكانت ماترينا على وشك أن تنفجر ثائرة مرة أخرى ، الا أنها نظرت الى الغريب وظلت ساكنة . وقد كان يجلس هناك على حافة المقعد ، لايبدى حراكا ، ويداه مشتبكتان على ركبتيه ، ورأسه منكس على صدره ، وعيناه مغلقتان ، ووجهه يتقلص ثم ينبسط كأن شيئا يخنقه أو يلوى أمعاءه. فاستطرد سيمون قائلا : « ماترينا .. أليس ثمة شىء من الله فيك ؟ »

واذ سمعت هذه الكلمات ، رنت مرة أخرى الى الغريب، وانفطر قلبها — فجاة — من الرحمة والأشفاق . وعادت من حيث كانت عند مدخل الباب ، واتجهت نحو الموقد ،

فاخرجت شيئا من الطعام ، ووضعت ابريق الشاى على المائدة ، وصبت بعض « الكفاس » ، المصنوع من القمح والشعير ، وجاءت بآخر قطعة من الخبز . وأعطت كلا من الرجلين ملعقة وسكينا وقالت لهما : « تناولا عشاءكما ! » . فهتف سيمون بالغريب قائلا : « اقترب ! » ، ثم قطع من الخبز وأعطاه ، وشرعا يأكلان ، وقد جلست ماترينا عند ركن المائدة ، ورأسها على يدها ، وراحت تنظر الى الغريب . وسرعان ما استشعرت العطف عليه والأسى من أجله . وحين أشرق وجهه فجأة ، واختفت الغضون من بين حاجبيه ، وارتفعت عيناه وابتسم فى عينيها ، قفز قلبها بين جنبيها . وبعد العشاء غسلت الأوانى ، ثم بدأت تسأله قائلة : « من أين أتيت ؟ »

فأجاب قائلا : **((من مكان غير هذا المكان))** .

ـ اذن كيف سقطت على جانب الطريق ؟

فأجاب قائلا : **((لست أملك أن أقول !))**

فقالت : « فمن أخذ ثيابك منك ؟ »

فقال : **((كان الله يعاقبنى))** .

فقالت : « ولكنك كنت ترقد هنالك عاريا » . فأجابها قائلا : « نعم ، كنت أرقد هنالك عاريا وأنتفض من البرد ، حتى رآنى سيمون وعطف على وخلع رداءه ووضعه على كتفى ، ورجانى أن أصحبه الى هنا . وهاأنتذى أعطيتنى مأكلا ومشربا وأبديت نحوى شفقة . فليفعل الله لكما مثلما فعلتما لى ! »

وعندئذ نهضت « ماترينا » ، وأخذت من كوة قميصا قديما لسيمون ـ هو ذات القميص التى كانت ترفوه ـ وأعطته للغريب . كما وجدت سروالا أعطته اياه ، قائلة :

« أراك بغير ثياب ، فخذ هذه البسها ثم استرح حيث تشاء ... على المقعد أو فوق الموقد ! »

فخلع الغريب العباءة ولبس القميص والسروال ، ونام على المقعد . أما «ماترينا» فأطفأت النور ، وأخذت العباءة ، وذهبت حيث رقدت بجانب زوجها بعد أن غطت نفسها بأطراف العباءة . ولكن النوم لم يطرق جفنيها ، لأن الغريب لم يفارق فكرها . وحين تذكرت أنه أكل آخر كسرة لديهم ، ولم يعدثمة خبز للغد ، وانها كذلك أعطته القميص والسروال ، شعرت بالضيق .. الا أنها حين تذكرت — بعد ذلك — ابتسامة الغريب قفز قلبها فى داخلها . وقد جفاها النعاس وقتا طويلا ، واذ شعرت أن زوجها كان مسهدا — هو الآخر — لايفتأ يسحب العباءة فوقه ، همست : «سيمون !» . فأجابها قائلا : « نعم ! »

— لقد أكلتما آخر كسرة لدينا وليس عندى ما أصنعه .. فلا أدرى ماذا سنفعل فى الغد .. لابد من أن أسأل جارتنا « مالينا » بعض الخبز .

فأجابها سيمون قائلا : « هونى عليك . فسوف ندبر أمرنا لنعيش ، ويكون لدينا ما يكفينا » .

فصمتت بعض الوقت ، ثم قالت أخيرا : « انه ليبدو شابا لطيفا للغاية . ولكن لماذا لم يقل لنا شيئا عن نفسه ؟ » . فقال زوجها : « أعتقد انه لايستطيع ! »

وعادت تهتف : « سيمون ! » . فعاد يجيب : « نعم ؟ »

قالت : **« اننا نعطى الآخرين ، ولكن لماذا لايعطينا نحن أحد ؟ »** .. ولم يجد سيمون جوابا ، فقال : « يمكننا أن نتحدث عن ذلك فى وقت آخر » . ثم استدار واستغرق فى النوم ،

- ٥ -

• استيقظ سيمون فى الصباح ، فاذا الاطفال مازالوا نائمين ، وقد خرجت زوجته لتستعير بعض الخبز من الجيران . وكان الغريب - الذى جاء بالامس - يجلس وحيدا على المقعد ، مرتديا القميص القديم والسروال ، وهو ينظر الى أعلى . وقد ازداد وجهه تألقا وبهاء عما كان بالامس . فقال له سيمون : « حسنا ، ياصديقى الصالح ، ان الأمعاء تطلب الخبز ، والجسد يطلب الثياب ، وعلى المرء ان يكسب ثمن الاثنين . فهل تعرف أية حرفة ؟ » . فأجابه الغريب : « كلا ، على الاطلاق » .

ودهش سيمون لذلك ، وقال : « ولكن عليك أن تحاول ، اليس كذلك ؟.. فى استطاعة الانسان أن يتعلم اى شىء لو أراد » . فأجابه : « نعم . ان الناس يعملون ، وسأعمل أنا كذلك » .

وسأله سيمون : «ما اسمك اذن ؟» . فقال : «ميشيل» .

- حسنا يا ميشيل . انك لم تقل لنا اى شىء عن نفسك ، وهذا شأنك . **الا أن علينا أن نكسب عيشنا . ولو أنك فعلت ما أعلمك اياه ، فسوف تجد لدينا ما تأكله .**

فقال الغريب : « جزاكم الله خيرا !.. ولسوف أتعلم لو أنك علمتنى » .

ومن ثم أخذ سيمون خيطا وعقده بأصبعه قائلا : « ليس العمل بالأمر العسير ، فراقبنى ! » .. وراح ميشيل يراقبه ، وما لبث أن ربط الخيط على اصبعه وعقده . ثم علمه سيمون بعد ذلك كيف يلحم الجلد ، ويغرس الابرة ، ويدخل الخيط . ففهم كل ذلك فى الحال . ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان فى امكانه أن يعمل كما لو كان اسكافا

طول عمره ، وقد أتقن الفن كل الاتقان .

ولم يكن يأكل الا النزر اليسير ، ولا يستريح الا قليلا ، وهو ينظر الى أعلا فى هدوء .. ولم يكن يخرج ابدا ، او يتكلم عن نفسه أو يمزح أو يضحك على الاطلاق .. وكانت المرة الوحيدة التى شوهد فيها يبتسم هى تلك المرة الاولى ليلة مجيئه ، حين أتت اليه « ماترينا » بالعشاء .

- ٦ -

• ومضى الوقت يوما بعد يوم ، واسبوعا بعد أسبوع ، حتى انقضى عام بأكمله ، وميشيل يعيش مع سيمون ، ويعمل له . وقد اشتهر فى الاقليم كله بأنه أحذق صانعى الأحذية جميعا ، وأكثرهم اتقانا لصنعته . وبدأ الناس يأتون الى سيمون من كل أنحاء الاقليم لاصلاح احذيتهم ، حتى لقد ازداد من جراء ذلك دخله .

وفى يوم من أيام الشتاء ، كان سيمون وميشيل جالسين يعملان معا ، حين أقبلت زحافة تجرها ثلاثة خيول نحو الكوخ ، يتعالى رنين أجراسها . فلما أطل صانعا الاحذية من النافذة رأيا المركبة تقف تجاه الكوخ .. وقفز منها حارس ، فتح بابا فخرج منه سيد يتدثر بثوب من الفراء ؛ واتجه صوب مسكن سيمون ، فارتقى الدرج . وهرعت « ماترينا » لمقابلته . وفتحت الباب على مصراعيه . فأحنى السيد راسه ودخل الكوخ ثم انتصب ثانية ، فاذا رأسه يكاد أن يلمس السقف . وملأ جسمه الضخم ركنا بأكمله من الغرفة .

فنهض سيمون وحياه ، مأخوذا بعظمته ، فانه نادرا ما راى مثل هذا الرجل هناك .. كان هو ذاته أغبر الوجه ،

بينما كان « ميشيل » ضامرا نحيفا ، وكانت « ماترينا » عجفاء كمركب من الخشب .. أما هذا الرجل ، فقد جاء من عالم آخر بوجهه الاسفنجى الاحمر ، وعنقه الذى يشبه عنق الثور ، وبنيته الحديدية الهائلة . وزفر السيد بعمق ، وخلع رداءه الفرو ، ثم جلس على المقعد وهو يقول : « من منكما صانع الاحذية ؟ » . فتقدم سيمون قائلا : « أنا يا صاحب السعادة » .

فصاح السيد الى الحارس الذى يتبعه قائلا : **« تيدكا ! هات ما معك هنا ! »**

ودخل الحارس ومعه لفافة أعطاها للسيد ، فوضعها هذا على المنضدة قائلا : « فكها ! » . ففعل الحارس . وعندئذ نقر السيد الجلد الذى كان فى اللفافة باصبعه ، وقال لسيمون : « أنظر أيها الاسكاف . هل ترى هذا ؟ » . فأجابه سيمون : « نعم ياصاحب السمو !! »

— وهل تعلم ما هو ؟

فنقره سيمون باصبعه ، وأجاب قائلا : « انه جلد جيد » . فصاح السيد قائلا : **« جلد جيد بالطبع !.. أيها الغبى ، أرأيت مثل هذا الجلد فى حياتك من قبل ؟.. انه صناعة المانية ويساوى عشرين روبلا »** .

وأجفل سيمون بعض الشىء وتمتم قائلا : « آه . حسنا .. أية فرصة تتيح لنا أن نرى مثل هذا الجلد ؟ » . فقال السيد : « حسنا . حسناً . ولكن هل يمكنك أن تصنع لى حذاء منه ؟ » .. فأجابه : « يمكننى يا صاحب السمو » .

— يمكنك ؟!.. ولكن ، فلتفهم جيدا ماذا انت صانع به . أريد حذاء يعيش سنة . ويجب ألا يتشقق أو يتفكك . فاذا كان

فى امكانك أن تصنع لى مثل هذا الحذاء ، ابدأ العمل واقطع الجلد الآن حالا . أما اذا لم يكن ذلك فى امكانك ، فلا تفعل شيئا . اننى أنذرك مقدما بأن الحذاء الجديد اذا تشقق أو تلف قبل سنة كاملة ، فسوف ألقى بك فى السجن . أما اذا لم يحدث له ذلك ، فاننى سادفع لك عشرة روبلات نظير عملك !

فتردد سيمون ، ولم يدر ماذا يقول ، وقد نظر الى ميشيل ، ووكزه بكوعه وهو يهمس اليه قائلا : « ماذا ترى أيها الأخ ؟ » . فأجابه ميشيل بايماءة من رأسه ، كأنما يريد أن يقول له : « نعم . خذ العملية » .

وأطاعه سيمون فقبل أن يصنع حذاء لايتشقق ولا يتفكك سنة كاملة .

***

واذ ذاك دعا السيد حارسه مرة أخرى ، وأمره بأن يخلع عنه حذاءه. ومد قدمه اليسرى قائلا : «خذ قياس قدمى !» . فقطع سيمون شريطا من الورق يبلغ عشرة « فرشوكات » (وهو يساوى ١٫٦٨ قدم) . ثم ركع ، وجفف يده جيدا فى مئزره كى لايوسخ جورب السيد ، وراح يأخذ قياسه .. فقاس أولا القدم ، ثم المشط . وكان مزمعا بعد ذلك أن يقيس بطن الساق ، الا أن شريط الورق ، لم يكف لأن يلتف حولها ، اذ كانت ضخمة كالعمود . وعندئذ قال السيد العظيم : « حذار أن تجعل الحذاء شديد الضيق عند الساق ! »

فجاء سيمون بشريط آخر من الورق ، وقد جلس السيد وراح يلوى أصابع قدمه داخل الجورب ، والموجودون فى الكوخ ينظرون اليه . وما لبث أن رأى ميشيل ، فسأل

سيمون قائلا : « من هذا الذى معك ؟ » . فأجابه : « هذا هو العامل البارع الذى يشتغل معى ، وهو الذى سيصنع لك حذاءك » . فقال السيد لميشيل : « **اسمع أنت اذن .. تذكر هذا الذى أقوله لك .. ينبغى أن تصنع الحذاء بحيث يعيش عاما كاملا ! »**

ونظر سيمون الى ميشيل ، فرأى أنه لم يكن ينظر الى السيد ، وانما راح يحملق فيما وراءه ، وكأنه كان ينظر الى شخص هناك . وما فتىء هكذا حتى أشرقت على وجهه فجأة ابتسامة أضاءت أساريره بأسرها . فسأله السيد : « لماذا تنظر هكذا أيها المجنون ؟.. الأحسن لك أن تنتهى من الحذاء حين أريده ! » . فأجاب ميشيل : « ستجده حاضرا فى أى وقت تريده !! »

فقال السيد : « حسنا جدا » . ثم وضع قدمه فى حذائه ثانية ، ولبس معطفه الفرو ، وأحكمه حول جسمه ، وتحرك نحو الباب . الا أنه نسى أن يحنى رأسه ، فارتطم بسدة الباب ارتطامة شديدة ، فحك رأسه وهو يسب ويلعن ، ثم استقل العربة ورحل ..

فقال سيمون : « ياله من حجر صوان ! لقد أوشك أن يقتلع السدة برأسه ، ومع ذلك لم يأبه للأمر ! » .. فأجابت ماترينا قائلة : « كيف أمكن أن يكون صلبا هكذا ؟ ان الموت نفسه لا يستطيع أن يأخذ هذا الرجل الذى يشبه مسمارا من حديد » .

— ٧ —

• والتفت سيمون الى ميشيل قائلا له : « حسنا ، لقد أخذنا العملية الآن ، وينبغى ألا تقصر فيها ، فانه لجلد ثمين ، والسيد سريع الغضب . كلا . ينبغى الا نرتكب أى

خطا . وان لك لعينين واعيتين . وقد غدت أصابعك بارعة ايما براعة . فخذ هـذه المقاييس واقطع الجلد ، بينما أنا ارتق هذا الحذاء ! » . فأخذ ميشيل الجلد طائعا ، وبسطه على المنضدة ، ثم ثنـاه من وسطه ، وتناول سكينا ، وبدأ يقطعه .

وفي هـذه اللحظة ، اتفق أن اقتربت « ماترينا » من ميشيل ، ولمحت الطريقة التي يعمل بها ، فدهشت أشد الدهشة مما رأت ، لأنهـا كانت على المام كبير بفن صناعة الأحـذية . وقـد أدركت في التو أنه يقطع الجلد ، لا على الهيأة المعهودة في صناعة الأحذية ، وانما على هيأة شرائح مستديرة . ومن ثم أحست بالميل لأن تقول شيئا ، ولكنهـا ما لبثت أن فكرت في نفسـها قائلة : « لابد أنني لا أعرف كيف تنبغي صناعة أحذية السادة . ولابد أن ميشيل يعرف خيرا مما أعرف . ولذلك فانني لن اتدخل » .

حتى اذا انتهى ميشيل من قطع الشريحتين ، اخذ خيطا وبدأ يخيط الحـذاء ، لا من الطرفين — كما هو معهود في صناعة الأحذية — وانما من طرف واحد فقط ، كما يخاط الخف الذي توضع فيه قدم جثة الميت . وازدادت دهشة « ماترينا » اذ رأت ذلك ، الا أنها لم تتدخل كذلك ، وظل ميشيل منهمكا في العمل حتى جاءت ساعة الغداء . وعندئذ نهض سيمون ، ونظر اليه ، فوجد أنه صنع من جلد السيد زوجا من « البوسـوفيكي » ، وهـو خف الميت ! وتأوه « سيمون » هلعا ، وفكر في نفسه قائلا : « كيف حدث أن ميشيل — بعد أن عاش معي سنة كاملة ، لم يرتكب خلالها غلطة واحدة — يرتكب الآن هذه الغلطة ؟.. لقد أمر السيد بصنع حذاء متين ، ولكن ميشيل صنع زوجا من البوسوفيكي

واتلف الجلد ، فماذا عساى ان أفعـل مع السيد ؟.. ليس بوسع الانسان أن يحصل على مثل هذا الجلد كل يوم . » ، ثم قال بصوع مسموع لميشيل : « ماذا فعلت يا صديقى الفاضل ؟.. لقد أوردتنى مورد التهلكة . فقد أمر السيد بصنع حذاء . فما هذا الذى صنعت أنت ؟ »

وشرع فى توبيخه ، لولا ان ارتفع – فى هـــذه اللحظة – صوت طرقات على الباب ، وأطلوا من النافذة ، فرأوا رجلا يترجل عن حصانه ويربطه . ثم ما لبث أن فتح البـــاب ودخل الحارس الذى رافق السيد ، قائلا : « طاب يومكم ! »

فقالوا : «طاب يومك ، أية خدمة يمكننا أن نقدم لك ؟» .

فأجاب قائلا : « ان سيدتى أرسلتنى بشأن الحذاء ! »

فقالوا معـا : « نعم . ماذا عن الحـــذاء ؟ » . فأجاب : **« ان سيدى لن يحتاج اليه بعد . فقد مات منذ حين »** .

واذ ذاك صاحوا : « ماذا تقول ؟ » . فأجاب :

– انها الحقيقة . لقد مات فى العربة وهو عائد الى البيت من كوخكم . وقد كنا – حين وصلنا – نوشك أن نعينـــه عـلى النـــزول ، الا أنه انزلق الى الارض ككيس الدقيق ، ولفظ النفس الأخير ، وتمدد ميتا ، فرفعناه بصعوبة عظيمة من على الأرض ، ومن ثم قالت لى سيدتى : **« اذهب وقل لصانع الأحذية أن السيد الذى طلب صنع الحذاء ، وترك الجلد لذلك ، لن يحتاج اليه ، فليصنع منـــه خفا لجثته ، بأسرع ما يمكن ! »** . وقالت لى : « انتظر عنـــده حتى يصنعه ، وعد به » .. ومن ثم بادرت بالحضور لفورى .

فجمع ميشيل قطع الجلد من على المنضدة ، ولفهـا فى حزمة ، ثم أخذ الخف الذى كان موضوعا وقد تم صنعه ،

وخاط احدى فردتيـــــه فى الاخرى ، ثم مسحه بمئزره ، وأعطاه الرجل ، فأخذه هذا وانصرف قائلا : « طاب يومكم يا سادة ، وحظا سعيدا ! »

- ٨ -

• ومضى عام آخر ، ثم عامان آخران .. أكمل ميشيل ست سنوات مع سيمون . وكان يعيش طيلة الوقت كما كان أولا . فلم يكن يغـادر البيت أبدا ، ولم يكن يتكلم عن نفسه أبدا ، ولم يبتسم الا مرتين اثنتين منذ أن جاء الى البيت : الأولى حين قدمت اليه الزوجة الفاضلة العشـاء ليلة وصوله ، والثانية أثناء وجود السيد الغنى هناك .

وكان سيمون مسرورا جـدا بذلك الرجل الـذى راح يعمل معه ، ولم يعد يسأله من أين جاء . وكان جل خوفه ينحصر فى أن يذهب ثانية ويتركه .

وذات يوم ، كانوا يجلسون معـا فى البيت ، والزوجـة الفاضلة تلحم قطعةحديد على الموقد ، فى حين اعتلى الأطفال المقاعد وراحـوا يتطلعون من النوافذ .. وكان سـيمون يرسم ، وميشيل يثبت كعبا فى حذاء .. وفجأة قفز الولد الصغير من فوق المقعد على ميشيل ، وراح — وهو يتكىء على كتفه — يتطلع من النافذة ، ثم صاح : « **أنظر يا عمى ميشيل !.. هنالك سيدة وفتاتان فى طريقهن الى كوخنا ، واحدى الفتاتين عرجاء ! » . وما أن قال الولد الصـغير ذلك ، حتى ألقى ميشـيل بما فى يده جانبـا ، واسرع الى النافذة ، ونظر الى الطريق .**

وقـد دهش سيمون لذلك . فان ميشيل لم يسبق له أبدا أن نظر الى الخارج . ومع ذلك ، فقد التصق بالنافذة

– فى هذه المرة – وراح يحدق فى شىء ما . فنظر سيمون كذلك ، ورأى سيدة تتجه مباشرة نحو الفناء الامامى . وكانت حسنة الملبس ، تقود ابنتيها الصغيرتين ، وقد ارتدت كل منهما سترة من الفرو ، ووضعت شالا على رأسها . وكانت البنتان متشابهتين بدرجة يصعب معها تمييز احداهما عن الأخرى . الا أن عيبا كان يشوب القدم اليسرى لاحداهما ؛ فكانت تعرج فى سيرها .

وصعدت السيدة درجات السلم ، حتى اذا بلغت عتبة الباب ترددت قليلا ، ثم أدارت المقبض ودخلت ، وهى تدفع الصغيرتين أمامها ، قائلة : « طاب يومكم يا سادة » . فقال سيمون : « عفوك يا سيدتى .. أية خدمة يمكننا أن نقدمها اليك ؟ »

وجلست السيدة الى المنضدة ، فى حين التصقت الفتاتان الصغيرتان بركبتيها . وراح ساكنو الكوخ ينظرون اليهما فى فضول . وما لبثت السيدة أن قالت : « أريد زوجا من الباشماكى (وهى احذية الاناث) لكل من هاتين البنتين الصغيرتين ، لفصل الربيع » . فقال سيمون : « حسنا جدا يا سيدتى . لم يسبق لنا أن صنعنا مقاسات صغيرة كهذه من قبل ، الا أن فى امكاننا أن نصنعها . ولك أن تختارى ما اذا كان الحذاءان من الجلد الخالص ، أو الجلد المبطن بالقماش .. وهاهو ذا ميشيل .. الصانع الماهر الذى يعمل معى » .

والتفت سيمون حينئذ الى ميشيل ، فرآه قد القى بالعمل – الذى كان فى يده – جانبا ، وجلس ينظر بعينين ثابتتين الى البنتين الصغيرتين . فتولته الدهشة : **كانتا تبدوان – حقا – جميلتين ، بعيونهما السوداء المستديرة ،**

ووجناتهما المتوردة ، وسترتيهما الأنيقتين . الا أنه — مع ذلك — لم يستطع أن يفهم لماذا راح ميشيل ينظر اليهما هكذا ، كأنما كان يعرفهما من قبل . بيد أن سيمون ، راح يتحدث مع السيدة عن الحذاءين اللذين تريدهما ، حتى اذا انتهى من ذلك ، راح يعد شريطا من الورق ليقيس قدمى الفتاتين . وهنا رفعت السيدة الفتاة العرجاء الى ركبتيها قائلة : « خذ قياس هذه الفتاة ، واصنع فردة لقدمها الملتوية ، وثلاث فردات عادية متساوية القياس لأن الطفلتين توأمتان ! »

فأخذ سيمون القياس ثم أشار الى الطفلة قائلا : « ما الذى أصاب قدمها ؟.. انها لسيدة صغيرة جميلة !.. هل ولدت هكذا ؟ » . فأجابته السيدة : « كلا ، وانما هرستها أمها »

وعندئذ اقتربت « ماترينا » — وهى تتطلع لأن تعرف من هى السيدة ومن البنتان — قائلة : « فأنت اذن لست أمهما ؟ » . فأجابتها قائلة : « كلا يا سيدتى ، فهما — فى الحقيقة — لاتمتان لى بأية قرابة على الاطلاق ، وانما تبنيتهما » .

فقالت ماترينا : « انك لست أمهما ، ومع ذلك يبدو أنك تحبينهما حبا جما » .

فأجابتها قائلة : « كيف يمكن الا أحبهما وقد أرضعتهما ؟.. لقد كان عندى — فى يوم من الأيام — طفل من دمى ولحمى ، وقد أخذه الله اليه .. ومع ذلك فاننى لم أحبه بدرجة حبى اياهما ! »

- ٩ -

• **وتساءلت** « ماترينا » : « وابنتا من هما ؟ » .. إذ ذاك فتحت السيدة قلبها ، وقصت القصة التالية :

« **منذ ست سنوات ، قدر لهاتين الطفلتين أن تفقدا أباهما وأمهما ، فى أسبوع واحد** . فقد دفن أبوهما يوم الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة الذى أعقبه . نعم .. مكثتا بغير اب ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث ، ماتت أمهما كذلك . وكنت – فى ذلك الوقت – أعيش مع زوجى فى الريف ، بجوارهم .. فقد كان فناءا منزلينا متلاصقين . وكان أب هاتين الطفلتين فلاح يعيش من كده وجده . وحدث أن كان يعمل ذات يوم فى الغابة ، فسقطت عليه شجرة وقضت عليه فى الحال . وحملت جثته الى بيته . وكانت زوجته قد ولدت فى ذلك الأسبوع توأمتين ، هما هاتان الفتاتان . وقد ولدتا فى الشقاء والوحدة : فلم تكن مع أمهما امرأة أخرى لا عجوز ولا شابة ، لتعتنى بها . كانت وحيدة حين رقدت فى الفراش ، وكانت وحيدة كذلك حين ماتت !

« واتفق فى الصباح التالى أن ذهبت لأزورها أداء لواجب الجوار ، فما ان دخلت الكوخ ، حتى رأيت المرأة المسكينة ميتة ، وقد تصلب جسمها وبردت أطرافها ، وسقطت – وهى فى سكرات الموت – على احدى الطفلتين فهرست قدمها . وعندئذ أرسلت فى طلب النجدة .. وغسلوا الجثة ، وأرقدوها فى تابوت ، ثم دفنوها . **ولكن ، ما مصير الطفلتين اليتيمتين ؟.. من يأخذهما ؟.. كنت الوحيدة – بين النسوة – أرضع طفلا ولد قبل ثمانية أسابيع .. ذلك كان طفلى الأول . ومن ثم فقد تكفلت بالطفلتين كذلك ، بعد**

أن تناقش الفلاحون فيما ينبغى أن نصنع بهما. وقالوا لى : « خذيهما عندك الآن يا ماريا ، حتى نقرر فى أمرهما شيئا ». وقد بدأت أرضع الطفلة غير المصابة وحدها ، اذ لم أتوقع أن تعيش الأخرى . الا اننى ما لبثت أن قلت لنفسى : « لماذا أترك روح هذا الملاك الصغير حتى تذبل ؟ » . ورحت أرضعها — هى الأخرى — وأنا ممتلئة بالحنان نحوها .. وأخذت أضعها — مع أختها وطفلى — على صدرى . وكنت اذ ذاك شابة وقوية وقادرة على الارضاع ، وقد ملأ الله ثديى باللبن حتى فاضا . فكنت أرضع اثنين منهما معا ، بينما يرقد الثالث منتظرا ، حتى اذا اكتفى واحد من الاثنين ، أخذت الثالث وأعطيته ثديى . ومع ذلك ، شاء الله أن أظل أرضع هاتين الطفلتين حتى تكبرا ، وأن أدفن طفلى أنا خلال عامه الثانى . ولم يعطنى الله طفلا آخر بعد ذلك ، وقد ازداد — فى ذات الوقت — دخلى ، فأنا الآن أقطن عند الطاحونة هنا مع الطحان ، وأعيش عيشة هانئة رخية ، الا أننى — وا أسفاه — لم أوت أطفالا من أحشائى . **فكيف يمكننى أن أحتمل الحياة وحيدة ، بدون هاتين الصغيرتين ؟ وماذا يبقى لى بعدهما لأحبه وأعتنى به ؟ اننى لا أستطيع أن أفكر فى ذلك ، لأنهما لى كالشمع للشمعدان ! »**

وجذبت السيدة باحدى يديها الطفلة العرجاء ، وباليد الاخرى مسحت الدموع عن وجنتيها . ثم أضافت قائلة : « يقينا ، أنه لحق قول القائل اننا بدون أب أو أم قد نعيش ، ولكننا بدون الله لا يمكن أن نعيش ! »

وبعد أن تحدثوا هنيهة ، نهضت السيدة لتنصرف ، وقد رافقها الجميع الى الباب .. حتى اذا التفتوا الى ميشيل ، رأوه جالسا — ويداه مشتبكتان على ركبتيه — يحدق أمامه فى ثبات ، ويبتسم !

- ١٠ -

• **واقترب منـــه** سيمون ، وقال له : « ماذا هناك يا ميشيل ؟ » . فنهض عن مقعده ، ونحى العمل الذى بيـده جانبا ، ثم خلع مئزره ، وانحنى أمام السيد وزوجته قائلا : « سامحانى يا سيدى ويا سيدتى . لقد سامحنى الله ، فهل تسامحانى أنتما كذلك ؟ »

وعندئذ أبصر سيمون وزوجته النـور يشع من ميشيل ، فانحنى سيمون أمامـــه حتى كاد يمس الارض ، وقال : « يا ميشيل . أنى أراك أكثر من مجرد انسان ، ولن أقف فى وجهك ، ولن أسألك ، ولكن .. قل لى شيئا واحدا : لماذا - حين وجـــدتك اول الامر ، وجئت بك الى هنا ـ كنت مكتئبـــا ، حتى اذا قدمت لك زوجتى العشاء ، ابتسمت وغدوت عندئذ أكثر بهاء ؟.. ثم ، لماذا ابتسمت مرة أخرى ، حين كان السيد الغنى يأمرنا بصنع الحذاء ، وغدوت أكثـر بهاء منك فى المرة السالفة ؟.. وأخيرا ، لماذا ابتسمت ـ للمرة الثالثة ـ وغدوت أكثر بهاء ، حين جاءت السيدة بالطفلتين ؟ **.. قل لى يا ميشيل ، لماذا ابتسمت فى هذه المرات الثلاث ، ولماذا يشع هذا النور منك الآن ؟ »**

فأجاب ميشيل قائلا : « **هذا النور يشع منى الآن لأننى عوقبت ، وقد صفح الله عنى ثانية . وقد ابتسمت فى هـذه المرات الثلاث لأنه كان ينبغى أن أتعلم ثلاث كلمـات من كلام الله . وهذه الكلمات الثلاث تعلمتها الآن** . الكلمـــة الاولى تعلمتهـــا حين عطفت زوجتك على . لذلك ابتسمت فى المرة الاولى . والكلمة الثانية تعلمتها حين كان الرجل الغنى يأمر بصنع الحذاء . لذلك ابتسمت فى المرة الثانية . والكلمـــة الثالثة والاخيرة تعلمتها الآن حين رأيت الفتاتين الصغيرتين .

لذلك ابتسمت فى المرة الثالثة ! »

وحينئذ قال سيمون : « قل لى كذلك يا ميشيل : لماذا عاقبك الله ، وما هى هذه الكلمات الثلاث من كلام الله ، حتى أتعلمها أنا ! » . فأجاب ميشيل قائلا : « لقد عاقبنى الله لاننى عصيته . كنت ملاكا فى السماء ، وعصيت الله . فقد بعث بى الى الارض لآخذ روح امرأة ، فطرت الى الارض ، وهنالك رأيت المرأة راقدة مريضـة ، وقد ولدت فى الحال توأمتين . وكانت الطفلتان تتحركان بجانب أمهما ، ولكنها لا تملك أن تعطيهما ثدييها ، فصاحت باكية : « يا ملاك الرب ، لقد دفنوا منذ قليل زوجى الذى قتلتـه شجرة فى الغابة . وليس لى أخت ولا عمة ولا جدة ، فليس ثمة من يعـول صـغيرتى . لا تأخذ روحى ، واتركنى أرضـع الطفلتين وأربيهما ، واجعلهما تقفان على أقدامهمـا . ان الصغار لا يمكنهم أن يعيشوا بلا أب ولا أم ! » . **فأصغيت للأم ، ووضعت طفلا من طفليها على صدرها ، ووضعت الثانى بين ذراعيها وصعدت ثانية الى الله فى السماء** .. طرت الى الله ، وقلت : « لا يمكننى أن أقبض روح تلك الام ذات الطفلتين . ان الاب قد قتلته شجرة . وقد ولدت الام — فى الحال — توأمتين ، وقد تضرعت الى الا آخذ روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما ، وأجعلهمـا تقفان على أقدامهمـا . ان الصغار لا يمكنهم ان يعيشوا بلا اب ولا أم .. وعلى ذلك لم آخـذ روح الام » . وعنـدئذ قال الله لى : « اذهب واقبض روح هذه الام ذات الطفلتين ، **وسوف تتعلم ثلاث كلمات : سوف تتعلم ما يسكن فى الناس ، ومالم يوهب للناس ، وما يحيـا به الناس** .. وحين تتعلم هذه الكلمـات سوف تعود الى السمـاء » . وعلى ذلك طرت عائدا الى الارض ، وقبضت

جسده من برد الشتاء ، ويطعم زوجته وأطفاله . ففكرت فى نفسى قائلا : « ها انذا اهلك من البرد والجوع ، وهذا - فى ذات اللحظة - رجل يفكر متسائلا كيف يكسو نفسه وزوجته بالجلد ، وكيف يطعم نفسه وأسرته بالخبز !.. بوسعى بالتأكيد ان أسأله العون » .. وفى هذه اللحظة رآنى الرجل، فعقد حاجبيه ، واصبح شكله مخيفـا اكثر من ذى قبل ، ومضى . فتملكنى اليأس . على اننى فجأة سمعته يعود ، فنظرت أمامى . **ومع أننى كنت لا أكاد أراه ، الا اننى تبينت انه - من قبل - كان يحمل على وجهه معالم الموت ، أما الآن فقد عادت الى وجهه الحياة ، وفى هذا الوجه رأيت الله !..** وقد جاء الرجل الى ، وألبسنى ، وأخذنى معه الى بيته . فلما دخلت البيت ، قابلتنا امرأة ، وبدأت تتكلم . فبدت لى المرأة أكثر بشاعة مما كان الرجل .. كانت الانفاس الخارجة من فمها كأنفاس جيفة ، فكدت أختنق من رائحة الموت التى تنبعث منها . كانت تريد أن تلقى بى الى البرد مرة أخرى ، وكنت أعلم انها - ان فعلت - موتا تموت . **الا أن زوجها ما لبث أن ذكرها بالله ، فاذا بها فى لحظة تغيرت ..** حتى اذا قدمت لنا بعـد ذلك العشاء ، وجلست تنظر الى ، نظرت اليها بدورى ، فاذا بى لا أرى أثرا للموت فى وجهها ، وانما تمثلت الحياة .. **وفى هذا الوجه رأيت الله !**

«وعندئذ ، تذكرت الكلمة الاولى من كلام الله حين قال لى: **« سوف تتعلم ما يسكن فى الناس »** .. وعلمت أن ما يسكن فى الناس هو الحب . وقد شعرت بالفرح لأن الله رأى ان يظهر لى ما وعدنى به . ولذلك ابتسمت أول مرة . ولكننى لم أكن بعد قد تعلمت كل ما ينبغى ، اذ كان على أن أتعلم **كذلك** « ما لم يوهب للناس » ، و « ما يحيا به الناس » .

« ومن ثم فقد جئت لأعيش معكم ، وبعد أن مكثت هنا سنة ، جاء رجل وأمر بصنع حذاء .. حذاء يعيش سنة كاملة دون أن يتشقق أو يتفتق . **فلما نظرت اليه فجأة ، رأيت خلف كتفه زميلى ملاك الموت** . لا أحد غيرى رأى ذلك الملاك ، وقد عرفته ، وعرفت كذلك أن الشمس لن تغيب قبل أن تقبض روح هذا الرجل .. ففكرت فى نفسى قائلا : « ها هو ذا رجل يأخذ حيطته لعام قادم ، ولا يعلم أنه لم يبق من عمره ما يحياه حتى مجىء الليل » . وعندئذ تذكرت كلمة الله الثانية حين قال لى : « **سوف تتعلم ، ما لم يوهب للناس » !**

« وهكذا تعلمت من قبل ما يسكن فى الناس ، والآن كذلك تعلمت ما لم يوهب للناس : لأنه لم يوهب للناس أن يعرفوا ما هو مقدر لاجسادهم . وعندئذ ابتسمت لثانى مرة ، لأننى اذ رأيت زميلى الملاك ، أدركت أن الله قد كشف لى كلمته الثانية ..

« الا اننى لم أكن بعد قد تعلمت الكلمات كلها . فقد كان على بعد ذلك أن أتعلم ما يحيا به الناس . وعلى ذلك عشت وترقبت الوقت الذى يشاء الله أن يكشف لى فيه كلمته الاخيرة . حتى اذا كانت السنة السادسة لى معكم هنا ، جاءت امرأة مع فتاتين توأمتين . وعندئذ تذكرت الفتاتين ، وعلمت أنهما قد بقيتا على قيد الحياة . واذ عرفتهما ، فكرت فى نفسى قائلا : « لقد تضرعت أمهما الى من أجلهما ، وقد استمعت اليها حاسبا أن الصغيرتين بلا أب ولا أم لا بد ان تموتا .. الا أن هذه المرأة ــ وهى غريبة عنهما ــ أرضعتهما وربتهما » .. **وحين رأيت المرأة تحنو على الطفلتين ، وتذرف الدمع من أجلهما ، رأيت فيها الله الحى ، وعلمت ما يحيا به**

.. أعقل من الكبار !

« ان لم تكونوا كالاطفال الصغار ،
فلن تدخلوا ملكوت السموات » .

• جاء الأسبوع المقدس مبكرا ، وقد انتهى بالكاد أوان استعمال مراكب الجليد ، وما زال الثلج متراكما فى الأفنية ، أو منصهرا ينساب فى جداول نحو شارع القرية ، وقد تجمعت منه بركة كبيرة فى الطرقة الواقعة بين فناءين .. ومن هذين الفناءين انطلقت فتاتان صغيرتان ، احداهما تكبر الأخرى قليلا .. كانت أم كل منهما قد ألبستها - فى التو - ثوبا قشيبا ، فالصغرى ألبستها أمها ثوبا أزرق ، والكبرى ألبستها أمها ثوبا أصفر موشى . وقد ربطتا منديلين أحمرين على رأسيهما ، وخرجتا بعد الفداء ، ووقفتا على جانبى البركة .. وبدأت كل منهما - أول الأمر - تدعو الأخرى لرؤية ثوبها الجميل . ثم راحتا بعد ذلك تلعبان .

وخطر لهما أن تخوضا البركة . وبدأت الصغرى تفعل ذلك ، فاندفعت الى البركة بحذاءيها وكل ملابسها . فصاحت الكبرى قائلة لها : « لاتفعلى ذلك يا مالاشا ، والا نهرتك أمك .. اخلعى حذاءيك أولا .. وسافعل أنا كذلك ! » . ومن ثم

أصل عنوان هذه القصة : « قد يكون الاطفال أعقل من أبائهم » !

خلعتا حذاءيهما ، وثنيتا رداءيهما ، وخاضتا فى البركة من جانبيها المتقابلين . وقد توغلت مالاشا حتى رسغيها ، ثم صاحت قائلة : « أنها عميقة جدا ياعزيزتى أكولكا .. أننى خائفة . » ، فأجابتها الاخرى قائلة : « كلا . كلا . انها لن تزداد عمقا ، فتعالى رأسا ناحيتى » . ومن ثم اقتربت كل منهما من الأخرى . ثم قالت أكولكا : « على مهلك يامالاشا ، ولا تنثرى الماء على .. على مهلك ! »

ولم تكد تفوه بهذه الكلمات ، حتى ضربت مالاشا الماء برجليها فتناثر على ثوب « أكولكا » ، وغطاه بالوحل كله ، وأصاب عينيها وأنفها .. فغضبت « أكولكا » من « مالاشا » غضبا شديدا ، وجرت نحوها تريد أن تضربها .. الا أن الذعر كان قد تولى مالاشا ، اذ رأت ما سببته من تلف ، فقفزت خارجة من البركة ، وانطلقت هاربة الى منزلها . وتصادف أن كانت أم « أكولكا » مارة فى الطريق ، فرأت ابنتها وقد تلطخ ثوبها كله بالوحل ، فسألتها قائلة : « ماذا فعلت حتى صرت قذرة هكذا أيتها البنت الشريرة ؟ » ، فأجابتها ابنتها الصغيرة : « لقد رشتنى مالاشا .. انها فعلت ذلك متعمدة ! » .. فأمسكت أم أكولكا بمالاشا ، وصفعتها صفعة شديدة ، جعلتها تملأ الشارع ببكائها وصراخها ، فخرجت أمها على صوتها ، وصاحت غاضبة فى جارتها : « لماذا تضربين طفلتى ؟ »

وراحت المرأتان تتبادلان السباب ، فخرج الفلاحون من اكواخهم وتجمعوا حولهما . واخذ الجميع يصيحون ، وما من احد يسمع ، حتى كاد الشجار أن ينشب بينهم . وعندئذ ظهرت امرأة عجوز — وهى جدة أكولكا — وراحت تصيح محتجة ، وهى تجرى وسط الفلاحين قائلة : « أيها القوم

ومضى الزمن .. وأطل الله – مرة أخرى – على العالم ، كى يرى ماذا يفعل البشر ، وما اذا كانوا قد اصبحوا راضين بنصيبهم .. فاذا به يجدهم يعيشون فى أسوأ من الحال الاولى . كانوا حقا يعملون معا ، ولكن لأنهم لم يكونوا يستطيعون الا ذلك .. على أنهم لم يكونوا جميعا معا ، اذ انقسموا الى جماعات ، كل جماعة منهم تحاول أن تلقى عبء عملها على عاتق الاخرى . ومن ثم فقد ظل الصراع فيما بينهم مستمرا ، والوقت والجهد فى ذلك ضائع .. هكذا كانت حالهم جميعا .

***

واذ رأى الله ذلك ، قرر أن يحرم الناس من معرفة اللحظة المقدرة لموتهم ، بحيث يكون من المحتمل أن يأتيهم الموت فى أية لحظة من لحظات العمر ، بعد أن كان مقررا للحياة مائة سنة محددة . وقال الله لنفسه : « ان الناس حين يعرفون أنهم قد يموتون فى أية لحظة ، سيصيرون أكثر حرصا على حياتهم المهددة على الدوام ، فلا يثور الواحد منهم على الآخر ، معرضا للخطر حياته التى قد لا يكون نصيبه منها الا ساعات معدودات ! »

ومع ذلك ، فقد سارت الأمور بالعكس تماما . اذ أن الله حين أطل على العالم – بعد ذلك – ليرى ما يفعل الناس ، وجدهم فى أسوأ حال .. كان بعضهم أقوى من سواهم ، ومن ثم استطاع الاقوياء أن يستفيدوا من احتمال مجىء الموت فى أية لحظة ، كى يرهبوا الضعفاء ، فأخذوا يقتلون بعضا منهم ، ثم يهددون بالقتل باقيهم ، ان لم يرضخوا لمشيئتهم .

وهكذا ظهر فى الحياة نظام جديد ، يخلد فيه الأقوياء

واتباعهم الى الراحة ، فلا يعملون على الأطلاق .. ويساق الضعفاء قسرا لأن يعملوا فوق طاقتهم ، فلا يذوقون طعم الراحة أبدا . **وما فتئت كل من هاتين الطبقتين تخاف الاخرى وتكرهها ، حتى أصبحت الحياة أتعس منها فى أى وقت مضى .**

وما ان رأى الله كيف تجرى الامور ، حتى قرر أن يلجأ لآخر دواء يعالج به حال الناس .. فأرسل اليهم كل انواع الامراض ، قائلا فى نفسه أنهم حين يقعون تحت وطأة المرض ، قد يقتنعون بأن الرجل السليم يجب أن يشفق على المريض ويعينه ، حتى اذا مرض هو ذاته وجد من يشفق عليه ويعينه .

***

ثم ترك الله الناس بعض الوقت .. الا انه حين اطل ـ بعد ذلك ـ على العالم ، كى يرى كيف تجرى الامور ، وجد أن الناس ـ منذ أن أصبحوا عرضة للمرض ـ قد ازدادت حالهم سوءا على سوء . **فان المرض الذى أرسله الله ليوحدهم ويجمع شملهم ، لم يؤد الا الى ازدياد أسباب التنابذ والفرقة بينهم ..**

ذلك أن أولئك الذى اعتادوا أكراه الآخرين على العمل بدلا منهم ، أصبحوا الآن يكرهونهم على خدمتهم أثناء مرضهم ، مع أنهم هم أنفسهم لا يفكرون على الأطلاق فى آلام غيرهم .. وفى الوقت ذاته ، كان اولئك الذين يساقون قسرا للعمل من اجل غيرهم ولخدمتهم كذلك فى مرضهم ، قد أنهكوا بالعمل بدرجة لم يعد فى استطاعتهم معها رعاية المرضى من ذات أهلهم وذويهم ، فهم من ثم يتركونهم بلا راع

صوتك ، ولكن وجهك لا أراه .. واسمك لا أعرفه » .

فقال له الصوت : « أنا الملك داوود (النبى) » .

فلم ينكص الخاطىء أو يغادر الابواب ، وانما صاح - مرة أخرى - قائلا :

« أيها الملك داوود ، ارحمنى !.. تذكر ضعف البشر ومغفرة الله . لقد أحبك الله ورفعك فوق قومك .. أفلم يكن لك كل شيء ؟.. ألم يكن لك مملكة ، ومجد ، وثروات، وزوجات ، وابناء .. ومع ذلك فانك نظرت من سطح بيتك الى زوجة رجل فقير ؟.. ألم يدخلك ملكوت السماء برغم ذلك ؟.. ثم ألم تأخذ زوجة «يوريا» وتذبحه بالسيف ؟.. أنت الرجل الغنى ، ألم تأخذ من الرجل الفقير نعجته ثم تقتله ؟.. **هكذا الحال معى .. الا تذكر كذلك أنك لم تتب بل قلت : « ان آثامى وذنوبى أمامى فى كل حين » ؟.. هكذا الحال معى .. فأنت لا تملك أن ترفض دخولى ! »**

ولكن الصوت الآتى من وراء أبواب الفردوس سكت ولم يتكلم .

***

وبعد فترة قصيرة ، بدأ الخاطىء يقرع الابواب من جديد ، ويلتمس الدخول فى ملكوت السموات .

فارتفع صوت ثالث من وراء الابواب قائلا : « من هذا الرجل ؟ وكيف عاش فى الدنيا ؟ »

وأجاب صوت المدعى العام ، ساردا - للمرة الثالثة - الاعمال الشريرة التى ارتكبها الرجل ، ولم يذكر له عملا صالحا واحدا .

وعندئذ تكلم الصوت مرة أخرى من وراء الابواب قائلا : « أذهب من هنا .. ان الخطاة لا يدخلون ملكوت السموات » .

ولكننى لا أرى وجهك ، ولا أعرف أسمك » .

فأجاب الصوت قائلا : « أنا بطرس الرسول »

فقال الخاطىء : « أى بطرس الرسول ارحمنى وتذكر ضعف البشر ومغفرة الله !.. ألم تكن تلميذا للمسيح ؟.. ألم تسمع من ذات شفتيه تعاليمه ؟.. ألم تر اسلوب حياته ؟.. الا تذكر حين كان هو فى محنة الروح ، وقد عاتبك ثلاث مرات لأنك تنام ولا تصلى ، ومع ذلك فقد نمت لأن عينيك كانتا ثقيلتين ، وثلاث مرات وجدك نائما ؟.. الا تذكر – كذلك – كيف وعدته بألا تنكره حتى الموت ، ومع ذلك فقد انكرته ثلاث مرات ، حين جىء به الى قيافا ؟.. هذا هو الذى حدث معى .. **ألا تذكر كيف صاح الديك ، وكيف ذهبت خارجا وبكيت بكاءا مرا ؟ هذا هو الذى حدث معى .. فليس لك ان ترفض دخولى ! »**

ولكن الصوت الآتى من وراء ابواب الفردوس سكت ولم يتكلم .

***

وبعد فترة قصيرة ، بدأ الخاطىء يلتمس الدخول فى ملكوت السموات ، مرة أخرى . فارتفع صوت ثان من وراء الابواب قائلا : « من ذلك الرجل ؟.. وكيف عاش فى الدنيا ؟ »

فأجاب صوت المدعى العام ساردا مرة أخرى كل الاعمال الشريرة التى ارتكبها الخاطىء ، ولم يذكر عملا صالحا واحدا .

وعندئذ أجاب الصوت من وراء الابواب قائلا : **« اذهب من هنا . ليس للخطاة مثلك أن يعيشوا معنا فى الفردوس ! »**

ولكن الخاطىء صاح قائلا : « أيها القاضى ، اننى أسمع

• **كان** يعيش فى مدينة (فلاديمير) تاجر شاب ، يدعى « اكسينوف » ، يملك حانوتين ومنزلا .. وكان أحمر البشرة ، أجعد الشعر ، وسيما فى جملته . فضلا عن انه كان رخيم الصوت ، محدثا من الطراز الاول .. غير أنه اكتسب - منذ صغره - عادة شرب الخمر ، حتى غدا سكيرا عربيدا . لكنه لم يكد يتزوج حتى هجر الخمر ولم يعد يقربها ، الا بين الحين والحين .

وذات صيف ، كان مزمعا ترك عائلته والرحيل الى مكان الاحتفال بـ « المولد » فى (نيزنى) ، حين قالت له زوجته : « لاتذهب اليوم يا ايفان ديمتريفيتش ، فقد حلمت عنك حلما مزعجا فى الليلة الماضية ! » .. ولكن اكسينوف ضحك وقال : « اخائفة انت ؟.. انى سأذهب فأقضى وقتا ممتعا فى المولد » .

- لست أعرف ما يخيفنى ، غير أنى رأيت فى حلمى رؤيا مرعبة .. رأيتك آتيا من المدينة ، فلما رفعت قبعتك ، رأيت شعرك قد اشتعل شيبا !

فضحك اكسينوف - مرة أخرى - وقال لها : « لا تخافى ، فلسوف أعقد هناك بعض صفقات رابحة ، وآتى لك ببضع هدايا ثمينة » .

وقبل أفراد عائلته ، ثم رحل .

***

وفى منتصف الطريق ، التقى بتاجر آخر من معارفه ، واتفقا على قضاء الليل فى خان هناك .. ومضيا الى فراشهما فى غرفتين متلاصقتين . غير أن « اكسينوف » - الذى لم يكن مولعا بالنوم - استيقظ فى منتصف الليل . ولما كان

يسفر بهيجا فى نسمة الليل الرطيبة ، فقد ايقظ سائس الخيل ، وطلب اليه اعداد جواده للرحيل ، ثم ذهب الى مكتب صاحب الخان فدفع ما عليه ، وواصل رحلته .

وبعد ان ابتعد حوالى اربعين فرسخا ، توقف ليطعم جواده فى خان آخر .. واخلد الى النوم بعض الوقت ، ثم دخل الى الشرفة ليتناول فيها غداءه . وطلب ابريقا من الشاى ، وتناول الجيتار (القيثارة) وبدا يعزف عليه . وفجاة دخلت الفناء عربة ذات ثلاثة جياد — (ترويكا) — مجهزة بالاجراس .. وترجل منها ضابط وجنديان . ثم تقدم الضابط من « اكسينوف » وساله من هو ومن أين جاء . فأجاب اكسينوف عن ذلك فى الحال . ثم سال بدوره الضابط عما اذا كان يتفضل ويشاطره ابريق الشاى . **وكان الجواب الوحيد للضابط ان امطره باسئلة اخرى ، قائلا له اين نام فى الليلة الماضية ، وهل كان وحده او معه تاجر آخر ، وهل راى التاجر فى الصباح قبل ان يرحل ، ولماذا رحل مبكرا هكذا ، وغير ذلك من الأسئلة ..**

ودهش اكسينوف ايما دهشة لاستجوابه بهذه الطريقة ، الا انه انبا الضابط بكل ماكان يعلم . ثم قال له : « لماذا تريد معرفة هذه الخصوصيات ؟ .. لست لصا ولا قاطع طريق ، وانما انا تاجر مسافر فى عمل يخصنى ، ولم افعل ما استحق ان استجوب عليه هكذا » . فلم يفعل الضابط الا ان دعا الجنديين ، وقال لاكسينوف : « اننى مفتش الشرطة ، والسبب الذى من اجله اسالك هو ان التاجر الذى كنت معه فى الليلة الماضية قد قطعت رقبته .. ارنى كل امتعتك » .. ثم استدار الى الجنديين وقال لهما : « فتشاها ! » ..

وهكذا قادوا اكسينوف الى الداخل ، واخذوا منه حقيبته

هل حقا ارتكبت هذا الجرم ، ألم ترتكبه ؟ »

فقال لها : « أيخطر ببالك انت – من بين الناس جميعا – انني أفعل هذا ؟ »

كان ذلك كل ما استطاع اكسينوف أن يقوله . وقد غطى وجهه بيديه وانفجر باكيا .. وفى هذه اللحظة ، دخل جندى وقال ان وقت انصراف الزوجة وأولادهـا قد حان . وهكذا رأى اكسينوف عائلته ، للمرة الأخيرة .

وعنـدما انصرفوا ، بدأ اكسينوف يفكر فى المحادثة التى دارت بينه وبين زوجته . فلما تذكر أن زوجته نفسها ظنت انه مجرم ، وسألته بالفعل عما اذا كان لم يقتل التـاجر ، قال لنفسه : « من الواضح أن الله وحده يعلم الحقيقة .. فله وحده يجب أن أصلى ، ومنه وحده أطلب المغفرة » .. **ومنذ تلك اللحظة ، استبعد اكسينوف كل أمل ، وكل تفكير فى أن يتظلم مرة أخرى ، وراح يصلى لله وحده .**

وحـكم عليه بالجلد والاشغال الشاقة ، وفى الحال نفذ الحكم : فجلد أولا ، حتى اذا اندملت جراح الجلد أرسل مع مذنبين آخرين الى سيبريا .

وفى سيبريا ، قضى «اكسينوف» فى الاشغال الشاقة ستا وعشرين سنة ، غـدا خلالهـا شعر رأسه أبيض كالثلج ، واستطالت لحيتـه واسترسلت ووخطهـا الشيب .. وقد بارحه مرحه القـديم ، وانحنت قامته ، وأصبح صـموتا رصينا . ولكنه ظل مداوما على الصلاة لله .

وتعلم – فى السجن – صنع الأحذية ، واشترى بالنقود التى كان يكسبها كتابا مقدسا ، اعتاد أن يقرأ فيه كلما كان الضوء متوفرا فى السجن . وكان – فى أيام الأعياد – يذهب الى كنيسة السجن ، فيقرأ الانجيل هنـاك ، ويرتل مع

المرتلين ، اذ ظل صوته رخيما . وقد أحبه رجال السلطة فى السجن بسبب حسن سلوكه ، ونال احترام الضباط حتى لقد كانوا يلقبونه « ديديشكا » أى الجد ، كما كانوا يدعونه رجل الرب . وأصبح كل راغب — من زملائه — فى أن يقدم تظلما فى السجن ، يلجأ اليه ويأخذه معه للسلطات . وحينما كانت تحدث مشادات بين المسجونين ، كانوا دائما يسعون اليه لينهيها .

ولم يصل أبدا أى خطاب لاكسينوف من عائلته . وعلى ذلك لم تكن لديه وسيلة للتأكد مما اذا كانت زوجته وأبناؤه على قيد الحياة ، أم طواهم الموت .

***

وذات يوم ، وصلت الى السجن شرذمة من المذنبين الجدد . فلما كان المساء ، تجمع المسجونون القدماء حول هؤلاء القادمين الجدد ، ليسألوهم من هم ، ومن أية مدينة أو قرية جاءوا ، ومن أجل أية جرائم حكم عليهم . وجاء اكسينوف كذلك ، فجلس على فراش من القش بالقرب من القادمين الجدد ، واستمع — وعيناه الى الأرض — لما راحوا يقولونه . وراح سجين طويل القامة ، قوى البنيان ، متقدم السن — فى حوالى الستين من عمره — ذو لحية سنجابية مشذبة .. راح يحكى قصة الجريمة التى سجن من أجلها ، وختم قصته قائلا : « وهكذا يا أصدقائى ترون أننى أرسلت الى هنا من أجل لاشيء .. كل ما فعلته اننى أخذت جواد صبى من صبيان البريد ، من عربة فى فناء الخان . وقد اعتقلونى قائلين اننى سرقته .. فقلت لهم طبعا ، ان غرضى الوحيد من أخذ الجواد كان هو ان أصل بأسرع ما يمكن لغايتى ،

يخرج لآخر مرة ، فى طريقه الى احتفال المولد . وقد رآه كما لو كانت حية حقا أمامه .. رأى عينيها ووجهها . وسمع ضحكتها وحديثها . ثم رأى أطفاله كما كانوا فى تلك الأيام ، صغارا ، وأحدهم فى سترة جميلة من الفرو . وأصغرهم يرضع ثدى امه . **ثم رأى نفسه كما كان فى تلك الايام ، شابا ممتلئا بالحيوية والروح المتوثبة . وتذكر جلوسه فى الشرفة ، وعزفه على « الجيتار » فى الخان ، حيث قبض عليه .. كم كان سعيد القلب اذ ذاك ! ..**

وما لبث الفكر أن انتقل به الى مكان التنفيذ حيث جلدوه . فتذكر الجلاد ، والناس المتجمهرين حوله ، والقيود الحديدية ، والمسجونين الآخرين ، وكل الأعوام الستة والعشرين التى عاشها فى السجن ، والسن التى تقدمت به . وهذه الرجفة التى اصبحت تنتابه — من فرط اليأس — كلما مس جسده بيديه .. وراح يفكر فى نفسه قائلا : « كل هذا بسبب ذلك الوغد ! »

وكانت ثورته على مقار سيمنوفيتش كفيلة — فى تلك اللحظة — بأن تدفعه لأن يهجم على الرجل ويثأر لنفسه منه الى الأبد .. وقد ظل طول الليل يتلو صلواته ، ومع ذلك لم تهدأ نفسه . وفى اليوم التالى ، لم يقترب أبدا من مقار ، ولم ينظر ليه .

***

ومر أسبوعان آخران ، لم يتسن لاكسينوف طوالهما أن ينام الليل . وكان هذا الارهاق يضنيه حتى لم يعد يدرى مايفعل بنفسه . وذات ليلة ، كان يجول فى السجن ، حين راى بعض التراب يقذف من تحت فراش من القش . فتوقف لينظر . **وفجاة خرج مقار سيمنوفيتش من تحت**

الفراش ، فحدجه بنظرة مرعبة . وكان اكسينوف على وشك أن يمضى ليتجنب النظر اليه ، حين أمسك مقار بذراعه ، وقال له أنه كان يحفر ممرا تحت الجدران .. وأنه اعتاد أن ينقل التراب الى الخارج كل يوم فى قاع حذائيه ، ويتخلص منه فى الطريق وهم ذاهبون للعمل . ثم استطرد قائلا : « لاتقل شيئا عن هذا . ولسوف آخذك معى .. أما اذا وشيت بى ، فلن أدعك حتى أقتلك ! »

وراح « اكسينوف » ينظر الى الرجل الذى أثم فى حقه أثما شنيعا ، فارتعد من فرط الغضب ، وسحب ذراعه من قبضة الرجل ، وقال له : **« ليس لى شىء أهرب من أجله ، ولن يمكنك أن تقتلنى مرة أخرى . لقد فعلت ذلك ، من زمن بعيد . أما اذا كنت سأشى بك أو لا أشى ، فذلك رهن بما يلهمنى الله ! »**

وفى اليوم التالى ، كان المسجونون يسيرون الى العمل ، واذا بعض الجنود يلاحظون أن مقار سيمنوفيتش كان ينثر ترابا على الأرض . وقد أدى ذلك الى تفتيش السجن واكتشاف الحفرة .. وجاء حاكم السجن ، فبدأ يسأل كل رجل بدوره ، بأمل العثور على صانع الحفرة . ولكنهم أنكروها جميعا . ولم يش الذين كانوا يعلمون الحقيقة بمقار ، اذ كانوا يعلمون أن جزاء هذه الجريمة هو الجلد حتى الموت .. وحينئذ ، استدار الحاكم الى اكسينوف ، وكان يعلم أنه رجل يقول الصدق ، فقال له : « أيها الشيخ ، انك واحد من أولئك الذين يقولون الحق ، فقل لى الآن ، أمام الله ، من فعل هذا ؟ »

وكان مقار واقفا وكأنما لا حيلة له فى الامر ، وهو يحملق فى الحاكم ، دون أن ينظر قط الى اكسينوف . وكانت يدا

حبة القمح!

• **حدث** ذات مرة ، ان عثر بعض الصبية – فى وهدة من الوهاد – على شىء صغير مستدير ، يشبه البيضة ، الا انه أوتى فلقا فى وسطه ، جعله أشبه بحبة القمح . وقد شهد أحد المارة هذا الشىء فى أيدى الصبية ، فاشتراه منهم بخمسة كوبيكات ، واخذه الى المدينة ، حيث باعه للملك على أنه تحفة من التحف ، وطرفة من الطرف .

وارسل الملك فى طلب الحكماء من رجاله ، وسألهم ان يفحصوا هذا الشىء الصغير المستدير ، وان يقرروا ما اذا كان هو بيضة أم حبة قمح . وقد تمعن الحكماء ثم تمعنوا ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يصلوا الى حل لهذا الاشكال .

ومن ثم فقد القى الشىء الصغير المستدير على رف نافذة ، وترك هنالك ، حتى حدث – ذات يوم – ان قفزت الى الرف دجاجة ، فنقرت هذا الشىء بمنقارها ، وحفرت فيه حفرة . وعندئذ تسنى للجميع أن يقطعوا بانه كان حبة قمح .. **فاسرع الحكماء الى الملك مؤكدين له أن الشىء الصغير المستدير انما كان حبة قمح !**

ودهش الملك لذلك أيما دهشة ، وطلب الى حكمائه أن يفكروا ويقرروا : أين ومتى نبتت هذه الحبة .. فتمعن الحكماء ، ثم تمعنوا . وراحوا ينقبون فى كتبهم ، ولكنهم لم يستدلوا على شىء . فعادوا الى الملك قائلين : « ليس بوسعنا أن نجيب عن هذين السؤالين ، لاننا لم نجد شيئا فى كتبنا

وإذ أطلعه الملك على الحبة ، أخـذها بين يديه ، وراح يقلبها ثم يقلبها . وقال أخيرا : « لقد مضى زمن طويل جدا منذ أن رأيت حبة من حبوب العهد الغابر كهذه ! » . . ثم قضم الحبة ، وراح يلوك جزءا منها ، وهو يقول : « انها هى ذاتها ! »

فقال الملك : « قل لى اذن يا جـدى ، أين ومتى زرعت هذه الحبة ؟ . . وهل سبق لك انت ذاتك أن زرعت مثلها فى حقلك ، أو اشتريت مثلها من اى مكان ؟ »

فأجاب العجوز قائلا : « لقد كان مثل هذه الحبة على أيامى يزرع فى كل مكان . وكنت على مثلهـا اعيش واعول الآخرين . . لقد طالما زرعت وحصدت مثل هذه الحبة ! »

وعاد الملك فسأله قائلا : « قل لى أيها الجد الطيب ، هل اعتدت فى أيامك أن تشترى مثل هـذه الحبـة ، أو كنت تزرعها بنفسك فى حقلك ؟ »

فابتسم العجوز وقال : « فى أيامى ، لم يكن هنـاك من يفكر - على الاطلاق - فى اقتراف هذا الاثم العظيم ، الذى هو بيع القمح او شرائه . . فاننا لم نكن نعرف شيئا عن النقود . . وكان كل انسان يملك من الحنطة قدر ما يريد ! »

فسأله الملك مرة أخرى قائلا : « قل لى أيها الجد الطيب ، أين زرعت مثل هذه الحبة ؟ . . أين كان حقلك ؟ »

فأجاب العجوز قائلا : « كان حقلى هو ارض الله ، فحيث كنت أحرث كان ذلك هو حقلى . كانت الأرض للجميع ،

ولم يكن أحد يقول هذه أرضى . كان كل ما يملكه المرء هو عمل يديه ! »

فقال الملك : « أجبنى الآن عن سؤالين .. أولا : لماذا كان هذا القمح ينمو فى تلك الأيام ، ولا ينمو الآن ؟.. وثانيا : لماذا يمشى حفيدك بعكازين ، وابنك بعكاز واحد ، بينما تمشى أنت نفسك بسهولة ، دون ما عكاز على الاطلاق .. وفوق ذلك فان عينيك ما زالتا سليمتين ، وأسنانك ما زالت قوية ، وكلامك ما زال واضحا فصيحا ؟.. هلا عللت هذه الأمور ؟ »

فأجاب العجوز : « ان سبب هذه الأمور هو أن الناس لم يعودوا يعيشون بعملهم وحده ، وانما بدأوا يشتهون ما لغيرهم . أما فى الزمن القديم فلم يكونوا يعيشون هكذا . فى الزمن القديم ، كان الناس يعيشون بمقتضى كلمة الله .. كانوا سادة أنفسهم ، ولم يكونوا يشتهون ما للغير ! »

شوط
الحياة

« كم يلزم الانسان من الارض ؟ »

- ١ -

• جاءت الأخت الكبرى من المدينة لتزور اختها الصغرى .. وكانت الكبرى متزوجة من تاجر ، والصغرى متزوجة من فلاح . وفيما هما تحتسيان الشاى وتتحادثان ، راحت الكبرى تتباهى وتشيد بحياتها فى المدينة ، شارحة كيف تعيش وتتنقل فى راحة ويسر ، وتلبس أطفالها فاخر الثياب ، وتأكل وتشرب ما لذ وطاب من المآكل والمشارب ، وتذهب لتتزحلق على الجليد ، وتتمشى ، وتشهد المسرح .

فاغتاظت الأخت الصغرى من ذلك ، وانطلقت — وهى ترد على اختها — تندد بحياة زوجة التاجر ، وتتفاخر بحياة الريف التى تحياها هى ، قائلة لها : « اننى من جانبى لا يعنيننى ان استبدل حياتى بحياتك . واؤكد لك اننا نحيا حياة بديعة ، فلا نعرف الثورة أو التذمر . أما أنتم فعلى العكس .. مع كل حياتكم الرخية ، اما أن تصيبوا ربحا عظيما ، او يصيبكم الدمار . وانك لتعرفين الحكمة القائلة ان « الخسارة هى الأخت الكبرى للمكسب » . فمن الممكن أن تكونوا اغنياء اليوم ، ولكنكم قد تجدون انفسكم فى الشارع غدا . **اما نحن فحياتنا أفضل من ذلك هنا فى الريف . فقد تكون معدة الفلاح رفيعة ، ولكنها طويلة .. أى انه قد لا يكون غنيا أبدا ، ولكنه مع ذلك يملك على الدوام كفايته ! »**

وهنا بادرت أختها الكبـــرى الى مقاطعتها قائلة لها : « أحقا تقولين كفايته ؟.. كفايته ، مع لا شيء ســـــوى خنازيرك وابقارك العجفاء ؟.. كفايته ، مع لا شيء من الملابس الجميلة أو الصحبة الطيبة ؟.. فلماذا اذن مع كل ما يقوم به زوجك من عمل شاق ، تجـدين ان عليك أن تعيشى فى الوحل الذى ستموتين فيـــه كذلك ، انت وأطفالك من بعدك ؟ »

فأجابتها الصغرى قائلة : « كلا . كلا . ان الامر لا يجرى معنا هكذا ، فمع أننا قد نقضى حياتنا فى عيشة جافية ، الا ان الارض على الأقل هى أرضنا ، ولا حاجة بنا لأن ننحنى ونتمسح بأى انسان .. أما أنتم فى المدينة ، فتعيشــون فى جو من الفضيحة .. فاليوم قد يكون كل شيء حسنا معكم ، ولكن العين الشريرة لا تلبث ان تصيبكم غدا ، فاذا زوجك يجد نفسه قد أغواه الميسر أو شرب الخمـــر ، أو خطف بصره بعض بريق الحب .. واذا بك تجدين نفسك وأبناءك وقد ضعتم وتحطمتم .. أليس كذلك ؟ »

وكان « باخوم » – زوج الاخت الصـــغرى – ينصت للحديث بالقرب من الموقد .. فقال : « هذا حق . أننى ما افتأ أقلب أرض أمى منذ طفولتى ، فلا وقت لأية حماقة من الحماقات كى تنفذ الى رأسى .. ومع ذلك فلدى هم واحد : هو ان رقعة أرضى صغيرة جدا .. فاعطينى ارضـا فقط ، وستجدينى لا أخاف انسانا .. كلا ، ولو كان الشـــيطان نفسه ! »

وفرغت المرأتان من احتساء الشاى ، وثرثرتا قليلا بعد ذلك عن الملابس ، وغسلتا الآنية ، ثم ذهبتا الى فراشهما .

وكان الشيطان جالسا خلف الموقد — فى تلك الاثناء — وقد سمع كل شىء ، وامتلأ سرورا حين قادت زوجة الفلاح زوجها الى التفاخـــر والتباهى ، والتبجح بأنه — اذا هو حصل على الأرض — فلن يتسنى للشيطان نفسه أن يأخذها منه . وقال الشيطان لنفسه : « بديع !.. لســوف أحاول أن أوقعك .. فسأعطيك كثيرا من الأرض ، ثم آخذها مرة اخرى منك ! »

- ٢ -

• وكانت تقطن على مقربة من اولئك الفلاحين ، سيدة يسمونها « البارينا » ، تملك ضيعة صغيرة مســاحتها مائة وعشرون « دسياتين » .. وهو يساوى ما يقرب من الثلاثة افدنة . وكانت هذه السيدة تعامل الفلاحين معاملة حسنة ، ولا تسىء استعمال حقوقها ابدا . الا انها لم تلبث ان اتخذت لها ناظرا كان فى الاصل جنديا شكسا ، فبدأ يضايق الفلاحين ويضطهدهم ، ويثقل بالجــزاءات عليهم . وعلى الرغم من الحرص الذى كان يلتزمه « باخوم » ، كان يحدث أن يدلف أحد خيوله الى حقول الشوفان التى تملكها الســيدة ، أو تتسلل بقـــرة من أبقاره الى حديقتها ، او تنطلق بعض صغار العجــول فى مروجها . ومن ثم كان يترتب على ذلك اقتضاء غرامات كثيرة من « باخوم » . فكان « باخوم » يدفع الغرامات ، ثم يروح يضرب ويشـــتم اهل منزله .

وقد دخل فى مشاحنات كثيرة مع الناظر من أجل ما حدث فى الصيف ، حتى لقد شكر الله على أن رأى قطيعه واقفا فى حقل العشب لا ينفلت الى هنا او هناك . وقد راح يأسف على الثمن الذى يدفعه لقاء اقامته فى ذلك المكان ، على الرغم من أنه كان يتكلف فيه من القلق والجزع أقل مما يتكلفه فى أى مكان آخر .

وفى ذلك الشتاء ، ذاعت أشاعة مؤداها ان السيدة مزمعة أن تبيع أرضها ، وان الناظر يعد العدة لأن يشتريها ، مع حقوق الارتفاق المتعلقة بها . وقد بلغت هذه الاشاعة آذان الفلاحين ، ومن ثم فقد تولاهم الهم والجزع .. وراحوا يفكرون قائلين : « لو حصل الناظر على الارض ، فلسوف يزعجنا ويثقل كواهلنا بالجزاءات والغرامات ، بصورة أبشع مما كان يفعل وهو تحت أمرة السيدة .. فيجب أن نحصل على ملكية الأرض بطريقة ما ، مادمنا كلنا نعيش حولها ونحوط بها كالدائرة » .

وعلى ذلك ، ذهب وفد عن القرية لمقابلة السيدة ، وتوسل اليها الا تبيع الارض للناظر ، وان تعطيهم الحق فى شرائها ، فيزايدون عليها ويكسبونها من منافسهم . ووافقت السيدة على ذلك . فأعد الفلاحون العدة ليشتروا الضيعة كلها ، وعقدوا لهذا الغرض اجتماعا ، ثم عقدوا اجتماعا آخر . الا أن الامر ظل معلقا . **وكانت حقيقة الامر أن الرجل القذر كان يحبط دائما تدبيرهم ، ويفل عزيمتهم بأن يعرض عليهم من الشروط ما يجعلهم عاجزين عن الموافقة . الا ان الفلاحين**

قرروا ان يحاولوا شراء الارض صفقات مجزأة بحيث يشترى كل منهم ما يستطيع . وقد وافقت السيدة على ذلك أيضا . وسمع « باخوم » - ذات يوم - أن جارا له اشترى عشرين « دسياتين » ، وأن السيدة وافقت على ان ترجىء دفع نصف الثمن عاما . فأكل الحسد قلب باخوم ، وفكر فى نفســـه قائلا : « لو ان الآخرين اشتروا كل الارض ، فلسوف اشعر بأننى متروك فى البرد ! » . ومن ثم فقد استشار زوجته قائلا لها : « كل منهم يشترى جزءا من الارض ، فخير لنا ان نشترى نحن كذلك عشرة دسياتينات ، فلســـنا نملك ان نعيش والاحوال تجرى هكذا ، لأن الناظر سيستنفد مالنا كله فى الغرامات » . وهكذا راحا يفكران ف الوســـيلة التى يشتريان بها الأرض .

وكان ثمة مائة روبل فى أيديهما ، فببيع مهـــر ، ونصف ما لديهما من النحل - بالاضافة الى دفـع ولدهما للعمل - يمكنهما الحصول على نصف المبلغ .. وقد جمع باخوم هذا النصف ، واختار خمسة عشر « دسياتين » ، ومســـاحة صغيرة من ارض الغابة ، ثم ذهب الى السيدة ليتفق معها » فتمت الصفقة ، وتصافحا ، ودفع باخوم التامين اللازم .. ثم انطلق الى المدينة ، فناستكمل اجراءات نقل الملكية - على ان يدفع نصف الثمن فى الحال » والنصف الآخر خـــلال سنتين .

موحى !.. لقد أصبح باخوم مالك أرض ! وقد اقترض - كذلك - مبلغا صغيرا من شقيق زوجته ليشترى حبوبا .

وقام فى الحال ببذرها فى ملكه الجديد ، فنتج له منها محصول جيد ، حتى لقد أوفى - فى بحر سنة واحدة - ما عليه للسيدة ولشقيق زوجته كذلك . وهاهوذا الآن مالك مطلق !

لقد كانت الارض التى يبذر فيها الحب ارضه وحـــده ، والمحصول الذى يحصده محصوله وحده ، والغابة التى يقطع منها الاخشاب غابته وحـــده ، والقطيع الذى يرعاه قطيعه وحده !

وكان كلما انطلق الى ملكه - الذى لا سـبيل الى انتزاعه منه - كى يحرث الارض ، أو يرقب المحصول ويجوس خلال المروج ، يشعر بسعادة لا نهاية لها ولا مزيد عليها .. فالعشب كان يبدو له مختلفا عن كل عشب آخر ، والازهار اكثـــر نضرة وتفتحا . وقد كانت ارضه - ذات يوم - مجرد أرض بالنسبة اليه . أما الآن ، فعلى الرغم من أنها مافتئت أرضا ، اصبح يراها ارضا مختلفة كل الاختلاف عن سائر الأراضى !

- ٣ -

• **عاش** باخوم هكذا زمنا . وكان سعيدا .. وكان خليقا أن يكون سعيدا حقا ، لو ان الفلاحين الآخرين تركوا حنطته وعشبه وشأنهما . فانه عبثا احتج ، وعبثا اعترض وكـرر احتجاجاته واعتراضاته . اذ كان الرعاة يدلفون بقطعانهم الى مروجه ، وكانت الخيل تجد طريقها - بوسـيلة ما - الى حقول القمح تحت جنح الليل . وكان باخـوم لا ينى عن طردها وعن الرجوع فى ذلك لأصحابها .. الا انه فقد آخر الامر السيطرة على أعصابه ، واسـتبد به الغضب ، ورفع شكوى الى المحكمة المركزية ، وهو يعلم حق العلم أن الفلاحين

انما يفعلون ذلك من فرط عوزهم الى الارض ، وليس عن خبث أو بدافع الاذى . ومع ذلك ، فما كان ليسمح بهذه الأمور ماداموا يأكلون خيرات ارضه .. فكان مضطرا الى أن يلقنهم درسا .. وقد ألقى على أحدهم درسا فى المحكمة ، ثم ألقى درسا على آخر . اذ حكمت المحكمة بالفرامة على الأول ثم على الثانى . **وقد أثار ذلك موجة الكراهية له ، وبدأ جيرانه يسرقون محصوله .**

وحدث أن تسلل أحدهم ذات ليلة الى زراعته ، ونزع قشور ما لا يقل عن عشر من أشجار الزيزفون . فلما ذهب باخوم — فى اليوم التالى — الى تلك الجهة ، ورأى ما حدث ، امتقع لونه . واقترب من الأشجار فرأى أن قشرها قد انتزع والقى بعيدا واستؤصلت الجذوع . ولم يترك اللئيم الا شجرة واحدة ، بعد أن اجتث كل فروعها .. أما باقى الاشجار ، فقد نجح كل النجاح فى الحاق الاذى بها .. ومن ثم فقد احتدم غيظ « باخوم » ، وهاج هائجه ، وفكر فى نفسه قائلا : « آه ، لو اننى فقط عرفت من فعل هذا ، لطرحته فى الحال وجعلته تحتى ! »

واستبدت به الدهشة والتساؤل عمن يكون قد فعل هذا . وراح يقول انه لو كان شخصا معينا ، فلابد أن يكون « سيميكا » . ومن ثم ذهب يبحث عن « سيميكا » . الا انه لم يحصل منه الا على شتائم ، جعلته أشد تأكدا منه فى أى وقت مضى ، من ان « سيميكا » هو الذى ارتكب تلك الفعلة . وقد قدم شكوى ضده ، واستدعيا أمام المحكمة ، فتداول القضاة ثم تداولوا ، ثم رفضوا الدعوى — فى النهاية — لافتقارها الى دليل . وقد زاد هذا من غضب باخوم ، فراح

يسب رجال الشرطة والقضاة جميعا . وقال فيما قال : «أنتم أيها القضاة شركاء اللصوص ، فلو انكم شرفاء ، لما حكمتم قط ببراءة سيميكا » .

نعم . لم يكن ثمة شك فى أن « باخوم » كان ساخطا على القضاة وعلى جيرانه كلهم ، وقد بدأ يزداد انطواء على نفسه داخل حدود أرضه ، وقل شيئا فشيئا تعامله مع أهالى القرية ..

وذاعت فى ذلك الوقت اشاعة مؤداها أن بعض الفلاحين فى تلك الجهات يفكرون فى الهجرة والرحيل ، مما جعل « باخوم » يفكر فى نفسه قائلا : « أما أنا فليس من سبب يدفعنى لأن أترك أرضى .. بل أن رحيل بعض الآخرين يفسح لى مجالا أوسع هنا ، اذ يمكننى من أن أشترى أراضيهم ، وبذلك أقيم لى سياجا من جميع الجهات من حولى ، وأعيش فى راحة أعظم . فاننى فى الوقت الحاضر شديد الهم والضيق » .

***

وحدث بعد ذلك بزمن وجيز ، أن كان « باخوم » جالسا فى منزله ـ ذات يوم ـ حين أقبل عليه فلاح مسافر . فأتاح له « باخوم » مكانا يقضى فيه ليلته ، وقدم اليه طعاما . وسأله فى غضون الحديث عن المكان الذى جاء منه ، فأجابه الفلاح بأنه أتى من بلدة فى سهل يحف بنهر (الفولجا)، حيث كان يعمل . ثم استرسل يحكى كيف تكونت هنالك مستعمرة ، **وكيف أن كل مواطن يسجل اسمه فى سجل القرية ، يمنح عشرة « دسياتينات » من الارض بديعة ،**

وحنطتها بالغة الجودة ، حتى لقد كانت عيدانها من الطول بحيث تخفى جوادا ، ومن الكثافة بحيث أن خمس قبضات منهـا تكون حزمة !.. واستطرد الرجل يقـول أن أحـد الفلاحين كان قد وصل الى هناك فقيرا معدما ، لا يملك الا يديه اللتين يعمل بهما ، فأصبح يمتلك خمسين « دسياتين » يزرعها حنطة . ومن المؤكد أن هذا الرجل قد اكتسب خلال السنة الماضية ـ وحدها ـ خمسة آلاف روبل من حنطته !

وهنا احتدمت روح « باخوم » بحرارة النار ؛ وفكر فى نفسه قائلا : « لماذا أبقى هنـا ، فقيرا مملقا متضـايقا ، فى حين يمكننى أن أحيا مثل هذه الحياة ؟.. لسوف أبيع هذه الأرض . نعم ، سأبيع الأرض والبيت جميعا ، وأذهب الى هناك لأبنى لنفسى بيتا جديدا ، وأزرع هنالك .. ما الحياة فى هـذه البقعـة الشنيعة الا هم متصـل ، فلأرحل الى هناك ، وأجمع المعلومات ، مهما يكبدنى هذا من ثمن ! »

وحين جاء الصيف ، تأهب للرحيل ، ثم استقل سفينة عبـر (الفولجا) الى (سمارا) ، وقطع أربعمائة فرسخ حتى وصل الى المكان الذى يقصده ، فوجـده كما وصف له . فالفلاحون يعيشـون فى بسـطة من العيش ، وقـد خصصت لكل نفس منهم عشرة « دسياتينات » . واستوثق من أنه سيجد من أهل القرية مودة وترحيبا . كما قيل له ـ فضلا عن ذلك ـ أن أى شخص يفـد الى هنـاك ومعه مال ، يستطيع أن يشترى قدر ما يريد من الأرض ، فوق القـدر الممنوح له ، فتصير ملكا خالصـا له الى الأبد .. ولقـاء ثلاثة روبلات لكل « دسياتين » ، يسـتطيع المرء أن

يأخذ ما شاء من أجود الأرض !

كل ذلك علمه باخـوم ، ثم عاد الى منزله فى الخريف ، فبدأ – على الفور – يبيع ما لديه . وقد نجح فى أن يرتب أمر الأرض والمبانى والماشية ، وحقق فى كل ذلك ربحا .. ثم شطب اسمه من سجلات القرية وانتظر قدوم الربيع . فلما أقبل ، بادر بالرحيل الى المكان الجديد مع أسرته .

– ٤ –

• وما أن وصلوا الى غايتهم ، حتى سـجل « باخوم » اسمه فى عداد سكان المستعمرة الكبرى – بعد ان بلل أفواه الرؤوس الكبيرة طبعـا – وأنجز المسـتندات اللازمة . ثم أخذوه ومنحوه خمسين « دسياتين » من الأرض – بواقع عشرة « دسياتينات » لكل فرد من أفراد الأسرة – فى أماكن مختلفة من المستعمرة ، فضـلا عن المراعى العـامة . وبنى « باخوم » منزلا وأثثه . وكانت أرضه الممنوحة وحدها ضعف ما كان يملك فى موطنـه الاول ، فوق انهـا كانت أرضا صالحة لزراعة القمح . وعلى العموم ، كانت الحيـاة تفضـل عشرة أضـعاف ما كانت من قبـل ، اذ باتت تحت تصرفه أرض صالحة للزراعة ، ومراعى خصبة معا .. فقد كانت المراعى مسـاحة واسـمة يطلق فيهـا من القطعان ما يشاء .

وراح فى مبدأ الأمر – وهو بعد يبنى ويؤثث – يرى كل شىء بديعا رائعا . الا أنه ما لبث ، حتى اسـتقر به الأمر قليلا ، أن بدأ يشعر بالضيق مرة أخرى .. فقد كان يريد

أن يزرع غلة قمح تركية بيضاء ـ كما يفعل الكثيرون غيره ـ ولـكنه لم يجـد أرضا صـالحة لزراعة القمح فى حصصه الخمس .. اذ لابد للقمح من أرض جـديدة معشبة ، أو أرض بور .. ومثل هذه الأرض ينبغى بذرها سنة ، وتركها بورا سنتين حتى ينمو العشب فيها مرة أخرى .. ولقـد كان لديه من الأرض الرخوة ما يشاء ، ولكنها لم تكن تصلح الا لزراعة « الجـودار » ، وهو حب يشبه الحنطة . أما القمح فكان يحتاج الى أرض صلبة ، والأرض الصلبة يكثر طالبوها ، وليس ثمة منها مساحة تكفى الجميع ، ولذلك فانهـا كانت مصدر كثير من المشاحنات والمنازعات .. أما الفلاحون الميسرون ، فكانوا يبذرون أرضهم ، وأما الفقراء فعليهم أن يرهنوا أرضهم للتجار !

وفى السنة الأولى ، بذر «باخوم» أرضه بالقمح ، وحصل منها على محصول رائع . ثم اراد أن يبذرها بالقمح سنة أخرى ، ولكنها لم تكن متسعة بقدر يكفى لأن يستبقى جزءا من المساحة التى زرعهـا ـ فى السـنة الماضية ـ بورا . **وبات لزاما أن يحصل على قدر آخر من الأرض** .. ومن ثم فقـد ذهب الى السـوق ، وحصل على ايجار سنة لأرض صالحة لزراعة القمح ، وبذر فيها على قدر ما استطاع من المساحة ، وفاز بمحصول عظيم .. غير أنه تصادف ـ لسوء الحظ ـ أن كانت الأرض بعيدة عن المستعمرة ، وكان عليه أن ينقل المحصول على العربات مسافة خمسة عشر فرسخا . ولذلك فان « باخـوم » كان كلما رأى التجـار المزارعين يقطنون بيوتا جميلة ـ ويزدادون غنى فى الاقليم الذى تقع فيـه الأرض ـ فكر فى نفسـه قائلا : « **ماذا عسـاها تكون الحال ، لو أننى حصلت على ايجار هذه الأرض لمدة أطول ،**

وبنيت فيها بيتا كما يفعلون ؟.. اننى عندئذ سأغدو فى مكانى الصحيح ! »

وراح يدبر الأمر ليحقق فكرته .. بينما واصل العيش – على هذا المنوال – خمس سنوات ، يأخذ على الدوام أرضا ويبذرها بالقمح . وكانت الأعوام كلها موالية فنجح القمح . وجاء المال .. ومع ذلك فقد بدت له الحياة – فى استرسالها على هذه الوتيرة – أمرا مملا ، فبدأ يتعب من تأجير الأرض كل سنة ، فى اقليم غريب ، وينقل ماشيته اليه .. وكان هذا يضيع عليه الفرص . فحيث كانت تسنح صفقة حسنة من الأرض ، كان الفلاحون يتزاحمون ، فيتم تقسيمها قبل أن يتأهب هو لاستئجارها وبذرها جملة واحدة .. وقد حدث أن ذهب – ذات مرة – ليشارك تاجرا فى استئجار مرج كامل لبعض الفلاحين وحرثه ، فألفى الفلاحين قد فرطوا فى المرج لآخرين بثمن بخس ، وذهب كل تعبه هباء .. **آه لو كانت هذه الأرض مملوكة له ملكا خالصا !. اذن لما احتاج لأن يعطيها لأحد ، ولا أن يقع فى أية متاعب !**

ومن ثم بدأ يبحث عن ضيعة يشتريها فى الحال . واذ كان بصدد هذه المحاولة ، وقع على فلاح تدهورت حاله ، فكان على استعداد لأن يبيعه أملاكه البالغة خمسمائة «دسياتين» بثمن بخس . وما لبث باخوم أن دخل معه فى ممارسة ومباحثات . وبعد كثير من المحاورة والمداورة ، اتفقا على الف روبل ثمنا للأرض ، يدفع نصفها فى الحال ، بينما يدفع نصفها الآخر على آجال . وتصادف – بعد أن اتفقا على ذلك – أن جاء الى بيت باخوم ، ذات يوم ، تاجر ليفحص خيوله . وبعد أن شربا معا ابريقا من الشاى ، وراحا

يتحادثان ، قال التاجر ــ خلال الحديث ــ انه جاء من بلاد بعيدة جدا هى بلاد رجال « الباشكير » ، حيث ــ على حد قوله ــ اشترى خمسة آلاف « دسياتين » بألف روبل لاغير !.. فراح باخوم يوجه اليه الأسئلة ، وراح التاجر يجيبه على أسئلته . واخيرا قال له : **« كل ما فعلت اننى أعطيت كبار السن هناك بضع هدايا ــ هى عباءات ، وأبسطة ، وصندوق شاى ــ ووزعت قرابة مائة روبل وقدمت الفودكا لكل من وجدته يميل اليها . وكانت النتيجة أننى حصلت على الأرض بواقع عشرين كوبيك للدسياتين »** .. وقد أطلع باخوم على وثيقة البيع ، ثم ختم كلامه قائلا : « ان الأرض تقع على نهر ، وكلها أرض خلاء معشبة مخصبة » .

وراح باخوم يلحف عليه فى السؤال ، فاسترسل التاجر قائلا : « انك لن تجد مثل هذه الأرض فى سنة . وهكذا الحال بالنسبة لكل أراضى الباشكير . وفوق ذلك ، فان الناس هناك بسطاء كالأغنام . ويمكنك الحصول منهم على كل شىء لقاء لاشىء ! » .. ومن ثم فكر باخوم قائلا : « ما جدوى أعطائى ألف روبل لقاء خمسمائة دسياتين فقط ، ويبقى ــ مع ذلك ــ دين فى رقبتى ، فى حين يمكننى ان أغدو مالكا حقيقيا بالمبلغ ذاته ؟ »

ــ ٥ ــ

• **تسأل** باخوم التاجر عن الطريق الموصل الى بلاد « الباشكير » ، فما خرج هذا الأخير من عنده ، حتى تأهب للرحلة . وغادر بيته ، تاركا فيه زوجته ، ولم يأخذ معه سوى خادمه .. واتجه ــ أولا ــ الى المدينة ، فاشترى

منها صندوقا من الشاى ، وزجاجات من « الفودكا » وبعض الهدايا الأخرى ، كما نصحه التاجر . ثم انطلق الاثنان ، وظلا فى سفر حتى قطعا خمسمائة فرسخ ، وفى اليوم السابع ، وصلا الى مضارب « الباشكير » ، فبدا لهما كل شيء كما قال التاجر .. **كان الناس يعيشون فى عربات مغمورة على سيف نهر يجرى ، وهم لا يحرثون الأرض ولا ياكلون القمح ، فى حين تتجول فى الوادى قطعان من الماشية وخيول القوزاق** . أما الافراس الصغيرة فكانت مقيدة فى مؤخر العربات ، ويأتون لها بأمهاتها مرتين فى اليوم لارضاعها .. وكان أهم غذاء للناس هنالك هو لبن الفرس — وهى أنثى الخيل — الذى تحوله النساء الى شراب يسمى « الكوميس » ، ثم تمخضن «الكوميس» **فتستخرجن** منه الجبن . والواقع أن « الكوميس » كان الشراب الوحيد المعروف لدى « الباشكير » ، الى جانب الشاى .. أما الأكل الوحيد الذى كانوا يعتبرونه غذاءهم ، فهو لحم الضأن .. وكانت ملهاتهم الوحيدة هى العزف على المزمار . وكانوا جميعا يبدون لطافا مرحين ، يقضون العام كله فى بطالة . أما التعليم فكانوا متخلفين فيه بصورة محزنة ، ولم يكونوا ملمين باللغة الروسية ، ولكنهم كانوا قوما ودودين جذابين برغم هذا كله .. أو ربما بسببه !

وما أن رأوا «باخوم» حتى خرجوا من عرباتهم وأحاطوا بضيفهم . وسرعان ما جاءوا بمترجم أنهى اليه « باخوم » انه جاء ليشترى أرضا .. فما عرف القوم ذلك حتى تملكهم السرور ، وعانقوا باخوم فى حرارة وحماس ، ورافقوه الى عربة فخمة ، حيث أجلسوه على كومة من الطنافس تعلوها وسادات ناعمة ، وجاءوا له ببعض الشاى و « الكوميس » ،

وذبحوا شاة واعدوا له غذاء من لحم الضأن . حتى اذا انتهى باخوم من ذلك كله ، جاء بالهدايا من عربته ذات العجلتين - وتسمى « التارنتاس » - ووزعها ، وقسم الشاى . ثم راح رجال « الباشكير » يتكلمون فيما بينهم برهة ، ثم طلبوا من المترجم أن يتكلم ، فقال : « انهم يقولون **أنك أسرتهم ، وان من عاداتنا أن نلبى طلبات الضيف ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، فى مقابل الهدايا التى يعطينا اياها . ولما كنت قد جئت لنا بهدايا فماذا تطلب منا حتى نمنحك اياه ؟ »**

فأجاب باخوم قائلا : « الذى اريده - على وجه الخصوص - هو بعض أراضيكم » .. ثم استطرد قائلا : « ليس فى البلد الذى جئت منه الكفاية من الأرض ، وما هو موجود منها مزروع فعلا ، فى حين ان لديكم الكثير .. وهى ارض جيدة لم أر لها نظيرا من قبل » . وترجم المترجم .. وتكلم رجال « الباشكير » فيما بينهم مرة أخرى . ومع ان باخوم لم يفهم ما كانوا يقولون ، فقد استطاع ان يرى أنهم راحوا يتصايحون معبرين عن شىء ما بصوت مرح . ثم انفجروا ضاحكين . وأخيرا توقفوا ، ونظروا الى باخوم ، فى حين راح المترجم يقول له : « **يقولون لك اننا - فى مقابل كرمك - على استعداد لأن نبيعك ما تشاء من الأرض ، فما عليك الا أن تشير بيدك مبينا العدد ، وسوف يكون ما تطلبه ملكا لك** » .

الا أن القوم - عند هذا الحد - بدأوا يتكلمون فيما بينهم مرة أخرى ، ويختلفون فيما يتعلق بأمر ما .. فلما سأل باخوم عن جلية الأمر ، قال له المترجم : « ان بعضهم يقول ان الرئيس - الذى يسمونه الستارشينا - ينبغى أن يكون

له الراى الأعلى فيما يتعلق بالأرض ، وانه ما من شيء يمكن ابرامه بدونه .. فى حين يقول الآخرون أن هذا ليس ضروريا » .

- ٦ -

• **وفيما** كان رجال الباشكير يتناقشون هكذا ، دخل العربة فجأة ، رجل يرتدى قبعة من فرو الثعلب ، فوقف الجميع لمقدمه ، فى حين قال المترجم لباخوم : « هذا هو الرئيس بنفسه » . وفى الحال ، تناول باخوم أفخم عباءة فمنحها للقادم ، مع خمسة أرطال من السكر . وقبلها الرئيس فى الحال ، ثم جلس فى مكان الشرف . وبدأ رجال الباشكير يشرحون له الأمر ، فأنصت اليهم ، ثم ابتسم وتكلم مع باخوم بالروسية قائلا : « اختر البقعة التى تعجبك ، أينما تكون ، فان لدينا الكثير من الأرض » .

ففكر باخوم فى نفسه قائلا : « اذن لى أن آخذ ما أشاء ، فعلى رسلك !.. لسوف أؤكد هذه الصفقة بعض الشيء ، فمن يدرى ؟.. لعلهم يقولون ، أن الأرض لى ، ثم يأخذونها منى مرة أخرى ! » . ثم قال للرئيس بصوت مرتفع : « اننى أشكرك من أجل قولك المشرب بالعطف .. ولما كنت تقول أن لديك كثيرا من الأرض ، وأنا فى حاجة الى بعض منها ، فاننى أريد أن أعرف أيها تكون لى بالتعيين ، **لذلك يحسن أن نقيسها بطريقة ما ، ثم أن نتخذ اجراءات نقل ملكيتها لى .. فأن الله وحده هو سيد الحياة والموت ، ومن يدرى ؟.. انكم قوم طيبون اذ تعطونها لى الآن .. ولكن ، قد يأتى من بعدكم أبناء ، يأخذونها منى مرة أخرى ! »**

فابتسم الرئيس وقال : « ان نقل الملكية قد تم بالفعل ، وهذا الاجتماع هو وسيلتنا فى فعل ذلك ، وما من شيء

ادعى منه للتأكد والثقة » . فقال باخوم : « ولكننى سمعت أن تاجرا زاركم أخيرا ، وأنكم بعتموه أرضا ، وأعطيتموه وثيقة تفيد نقل الملكية ، فأرجوكم ان تفعلوا المثل معى » . اذ ذاك فهم الرئيس قصده ، فأجابه : « حسنا جدا ، ان لدينا كاتبا هنا ، ولسوف يذهب الى المدينة ويحصل على الأختام اللازمة » .

وسأله باخوم قائلا : « ولكن ما الثمن الذى تريدونه للأرض ؟ » . فأجابه الرئيس : « الثمن الذى نريده هو الف روبل فى اليوم فقط ! » . ولم يكن باخوم قد ألف أن يحدد الثمن باليوم ، فتساءل :

ــ وكم « دسياتين » يعنى هذا ؟

ــ اننا لانحسب بهذه الطريقة ، وانما نبيع فقط باليوم ، اى أن الأرض التى يمكنك أن تمشى حواليها فى اليوم ، تكون لك . هذا هو طريقنا فى القياس ، والثمن الف روبل !

فقال باخوم مندهشا : « ولكن الانسان يستطيع أن يمشى حول مساحة كبيرة من الارض فى اليوم ؟ » . فابتسم الرئيس مرة أخرى ، وقال : « حسنا ، فانها على أى حال ستكون لك ، ولكن بشرط واحد فقط ، وهو أنك اذا لم تعد فى ذات اليوم الى النقطة التى بدأت بها ، ضاعت عليك النقود ! »

ــ ولكن ، كيف تحكمون فى هذا ؟

فقال الرئيس : « اننا نقف عند موضع تختاره أنت ، فأظل مع رجالى هناك ، بينما تمشى أنت ملتفا حول الأرض ، وبعض شبابنا يتبعك ليغرس عصا فى كل مكان تريده . ولك عندئذ أن تصنع الدائرة التى تروق لك .. **كل ما هنالك أنك يجب أن تعود الى النقطة التى بدأت منها عند**

غروب الشمس .. وأية مساحة من الأرض تحوطها أثناء سيرك ، تكون لك ! »

وقبل باخوم هذه الشروط .. وتم الاتفاق على أن تبدأ فى الصباح الباكر . ثم تحدث القوم مرة أخرى ، وشربوا مزيدا من « الكوميس » ، وأكلوا قدرا أكبر من لحم الضأن ، ثم انتقلوا الى شرب الشاى . واستمر احتفالهم حتى أرخى الليل سدوله .. ثم ذهب باخوم الى فراشه ، وتفرق رجال « الباشكير » بعد أن تواعدوا على التجمع — فى الصباح — عند النهر ، حيث ينطلقون الى المكان المعين قبل طلوع الشمس .

— ٧ —

• **استلقى** باخوم فى فراشه ، ولكن النوم لم يوافه بسبب تفكيره فى الأرض .. وقد استرسل يقول لنفسه : « لقد عزمت على ان أفوز بمساحة كبيرة جدا ، ولذلك فان فى أمكانى أن أسير على الاقل خمسين فرسخا فى اليوم ، وهذه تقدر — فى أى مكان — بعشرة آلاف دسياتين . وبعدها لن أكون تحت امرة انسان ، ولسوف أكون قادرا عند ذاك على استخدام زوج من الثيران وعاملين ، وسوف أحرث أجود الأرض وارعى الماشية فيما تبقى منها » .

وهكذا لم يغمض لباخوم — طيلة ذلك الليل — جفن ، ولكنه أغفى قبيل الفجر اغفاءة قصيرة . وفى اللحظة التى فعل فيها ذلك ، حلم حلما . **فرأى فيما يرى النائم انه يستمع الى شخص يضحك ويتكلم فى الخارج . واذ اراد أن يرى من ذلك الذى يضحك هكذا كثيرا ، خرج ورأى رئيس الباشكير يجلس على الأرض وهو يضع يديه على جبينه ويتأرجح من فرط السرور** . وسأله عن الأمر الذى

اضحكه ، ولكنه تبين انه لم يكن هو الرئيس الذى عرفه . وانما التاجر الذى زاره وحدثه عن هذه الأرض ، ورأى نفسه وهو يقول للتاجر : « ألم أرك فى بيتى منذ وقت قصير ؟ » . الا أن التاجر تحول فجأة ، فاتخذ صورة الفلاح الذى جاء من (الفولجا) وتكلم عن حقله هناك . **وأخيرا أدرك باخوم أن هذا الفلاح لم يكن فلاحا على الاطلاق ، وانما كان هو الشيطان نفسه بحوافر وقرنين ، وأنه كان ينظر بامعان الى شىء وهو يجلس ويضحك .** وعندئذ فكر باخوم فى نفسه قائلا : « الى أى شىء ينظر ؟ .. ولماذا يضحك هكذا كثيرا ؟ » .. وتراجع – فى حلمه – خطوات قليلة الى الداخل لينظر ، فرأى – حيث كان الشيطان يتطلع – رجلا عارى القدمين ، لايرتدى الا قميصا وسروالا ، وقد نام على ظهره ، ووجهه أبيض كالقرطاس .. فلما نظر بامعان الى الرجل ، رأى فيه نفسه .. رأى انه هو ذاته !

وأرسل صيحة ، ثم استيقظ من نومه .. استيقظ شاعرا كأن الحلم حقيقة . ثم نظر ليرى ما اذا كان النهار قد طلع . فلما رأى الفجر اقترب ، فكر قائلا : « ان الوقت ازف .. يجب أن أوقظ أولئك الرجال الطيبين ! »

– ٨ –

● **قام** باخوم وأيقظ خادمه – الذى كان نائما فى العربة – وطلب اليه أن يعد الجواد ، وان يذهب ليدعو رجال « الباشكير » .. اذ كان الوقت قد حان لينطلقوا الى الأحراش ويقيسوا الأرض . واستيقظ رجال « الباشكير » ، وتأهبوا للذهاب . كما وصل الرئيس .. وافطروا على « الكوميس » ، وأعطوا باخوم بعض الشاى ، ولكنه لم يطق

أن ينتظر ، قائلا : « اذا كان علينا أن نذهب ، فلنذهب ، فقد جاء الوقت ! » .. ومن ثم جهز رجال الباشكير خيلهم ، وامتطى بعضهم ظهورها بينما استقل بعضهم الآخر العربات .. فى حين استقل « باخوم » عربته الخفيفة مع خادمه .

ووصلوا الى الأحراش عند طلوع الفجر ، فتقدموا نحو تل صغير يسمى فى لغة الباشكير « الشيشميان » . وهنالك ترجل الذين كانوا فى العربات ، وتجمعوا .. واقترب الرئيس من باخوم فطوقه بذراعيه قائلا له : « أى أرض يقع بصرك عليها هنا أرضنا ، فاختر منها أى اتجاه تريد ! » .. فبرقت عينا باخوم ، لأن الأرض كلها كانت معشبة ، ممهدة ككف يده ، سوداء تحت الخضرة كرأس الخشخاش .
الا أنه كان ثمة خندق يخف عنده العشب . اما فى بقية الأرجاء فكان العشب بارزا كصدر الحسناء . وخلع الرئيس قبعته المصنوعة من فرو الثعلب ، فوضعها فى وسط التل ، ووجه الكلام الى باخوم قائلا : « ستكون هذه علامتنا ، فضع فيها نقودك ، وسيظل خادمك بجانبها فى الوقت الذى تنطلق فيه أنت .. ومن هذه العلامة سوف تبدأ ، واليها تعود .. وقدر ما تحوط من الأرض ، سيكون لك ! »

وأخرج باخوم نقوده فوضعها فى القبعة ، ثم خلع رداءه وارتدى صديريته ، وأحكم شد حزامه حول خصره ، ودس بعض الخبز فى صدره . وربط زجاجة ماء على شريط الجلد المحيط بكتفه ، وأحكم رباط حذائيه الطويلين ، وتهيأ لبدء الرحلة .. وراح يشاور نفسه أية وجهة من الأفضل أن يتجه ، لأن الأرض كانت جيدة حيثما أدار بصره . وأخيرا حزم رأيه قائلا : « مادامت كلها سوداء ، فسأتجه مع النهر الصاعد » ..

وولى وجهه شطر الناحية ، وراح يدرب اطرافه وهو ينتظر مشرق الشمس ، ويفكر قائلا : « ينبغى الا أضيع وقتا ، ولسوف أبذل كل جهدى فى السير منتهزا فرصة الجو الرطيب فى فترة الصباح » .. ووقف رجال الباشكير بجانب باخوم ، فما أرسلت الشمس أول أشعتها عبر الأفق، حتى بدأ باخوم رحلته خلال الاحراش ، وسار الرجال راكبين خلفه .

***

سار فى أول الامر فى غير بطء وفى غير اسراع . وبعد ان قطع نحو فرسخ واحد ، توقف وغرس عصا .. ثم واصل السير مرة أخرى ، وقد بدأ يفقد جموده الأول ، ويطيل خطواته . ثم وقف مرة ثانية ، وغرس عصا أخرى . ونظر الى الشمس - التى كانت الآن تضىء الأحراش وتكشفها - وقد بدا على ضوئها القوم الواقفون على التل . وقدر انه مشى حوالى خمسة فراسخ . ولما كان قد بدأ يستشعر الحرارة ، فقد خلع صديريته ، وشد حزامه مرة اخرى ، ثم سار خمسة فراسخ اخرى وتوقف . وكان القيظ قد بدأ يشتد . فنظر الى الشمس مرة أخرى ، ورأى ان الضحى قد حان . ففكر فى نفسه قائلا : ((**هل أتجه وجهة أخرى .. ثمة أربع وجهات أمامى أقطعها فى سحابة النهار ، ولكن الوقت مازال مبكرا لأفعل ذلك . ومع هذا فلأخلع حذائى !**)) . وخلع حذاءه ، ثم نهض وواصل السير مرة اخرى ، وقد أصبح السير أيسر عليه . وفكر قائلا : « سأقطع خمسة فراسخ أخرى ، ثم أتجه الى الشمال . وهذا التقدير حسن جدا ، فعلى قدر ما أتوغل ، تكون الأرض اكثر جودة » . ومن ثم فقد ظل محتفظا باتجاهه

الأول . ومع ذلك فانه ـ حين تلفت حواليه ـ راى ان التل قد اختفى عن النظر ، وقد غدا الرجال الواقفون هناك كأنهم النمل الاسود الصغير .

وأخيرا قال لنفسه : « الآن ، اصبحت المسافة التى رسمتها متسعة اتساعا كافيا ، وينبغى لى الآن ان اتجه وجهة أخرى » . وكان الجهد قد أخذ منه ، وانتابه العطش . فرفع الزجاجة وبلل حلقه بجرعة من الماء ، ثم غرس عصا أخرى فى النقطة التى وصل اليها ، واتجه الى الشمال بميل شديد ، وراح يغذ السير بين العشب المرتفع والحرارة المتقدة . وقد بدأ يتعب .. فلما نظر الى الشمس أيقن أن وقت الفداء قد حان ، ففكر فى نفسه قائلا : « الآن ينبغى لى ان اجازف بالاستراحة قليلا » .. ومن ثم توقف وأكل قطعة من الخبز ، وان لم يجلس . **اذ قال فى نفسه : « لو اننى جلست مرة ، فلسوف استلقى ، وينتهى بى الحال الى ان استغرق فى النوم » . على انه انتظر قليلا حتى شعر بانه اخذ قسطا من الراحة ، ثم واصل السير مرة اخرى .**

ووجد السير سهلا بعد ذلك اذ جدد الأكل قواه . ولكنه مالبث بعد برهة أن أحس أن حرارة الشمس تزداد حدة وهى تميل نحو مغربها . وكان قد غدا قريبا من الارهاق ، وان راح يقول فى نفسه فى مرح : « ساعة الم يعقبها زمان من الراحة والكسب ! »

وكان قد اجتاز حوالى عشرة فراسخ من دائر الأرض ، وهم أن يتجه مرة أخرى نحو الشمال ، حين وقعت عينه على رقعة أرض رائعة حول واد جاف . كان من الحماقة ترك هذه الرقعة . وفكر قائلا : « أن الكتان ينمو نموا رائعا هنا » .. **ومن ثم فقد واصل السير حتى عبر الوادى**

وغرس عصا فى تلك البقعة ثم غير اتجاهه مرة أخرى . فلما صوب نظره تجاه التل ، لم يعد يمكنه أن يميز القوم هناك .. كانوا على بعد لايقل عن خمسة عشر فرسخا . وعلى ذلك فكر قائلا : « لقد قطعت المرحلة الكبرى ، وينبغى لى ان اقطع هذه المسافة الأخيرة فى اقصر وقت ممكن » .

وشرع فى الحال ، واسرع الخطى . ومرة أخرى ، نظر نحو الشمس .. كانت تنحدر انحدارا سريعا نحو مغربها ، ولم يكن قد قطع من تلك المسافة سوى فرسخين . وكانت نقطة الابتداء على ثلاثة عشر فرسخا ، فقال فى نفسه : « يجب أن أسرع الآن . فقد طوقت مساحة كافية ! » .. ثم اتجه رأسا الى التل .

- ٩ -

. وحث الخطى رأسا فى اتجاهه ، ولكنه بدأ يحس بمشقة السير ، وغدت قدماه تؤلمانه ألما شديدا ، لأنه أرهقهما وآذاهما ، فبداتا تترنحان من تحته . وكان على استعداد لأن يعطى أى شىء فى نظير أن يصمد بعض الوقت فى رحلته هذه ، فقد كان يعلم أن الشمس لن تنتظره ، بل انها كانت كسائق لا يكف عن الهابه بالسياط . واخذيترنح من وقت لآخر ، وهو يفكر فى نفسه : « اننى بالتأكيد لم أخطىء التقدير .. بالتأكيد لم آخذ قدرا من الأرض أكبر من ان يجعلنى أقدر على بلوغ الهدف مهما أسرعت .. ان أمامى كل هذه المسافة لأصل وقد قتلنى التعب ، ولا يعقل أن مالى وتعبى قد ذهب كله سدى .. آه . حسنا . يجب أن ابذل كل جهدى ! »

وراح يجر نفسه محاولا أن يجرى .. ومزق قدميه حتى أدماهما ، ومع ذلك ظل يجرى ويجرى ويسرع ثم يسرع .

وقد امسك بالصديرى ، والحذاء والزجاجة والقبعة ورماها جميعا .. وكان يفكر قائلا : **« أواه !.. لقد سررت اول الأمر اعظم السرور بما رأيت . والآن قد ضاع كل شيء ، ولن اصل ابدا الى العلامة قبل الغروب ! »** . وعملت مخاوفه على أن تزيد من تقطع أنفاسه ، ولكنه — مع ذلك — ظل يجرى ، وقد التصق قميصه وسرواله بأطرافه من التعب ، وجف حلقه . وكأنما راح يعمل فى صدره منفاخ حداد ، وأخذ قلبه يدق كمطرقة بخارية ، فى حين أحس بأن قدميه كانا يتفتتان تحته وكأنهما ليسا قدميه . وفقد كل تفكير فى الأرض .. كل ما بات يفكر فيه هو أن يتجنب الموت من فرط الاجهاد . ومع ذلك ، وبالرغم من أنه كان خائفا جدا من الموت ، فانه لم يقو على أن يتوقف . وراح يفكر قائلا : « اذهب هكذا بعيدا ثم أقف ؟.. لسوف يعتبروننى مجنونا اذن ! » .

وبات فى وسعه أن يسمع الرئيس الواقف عند التل ، وهو يضحك ويصيح له مع رجاله ، فأخذت صيحاتهم تبعث روحا جديدة فيه .. وراح يجرى ويجرى بما تبقى لديه من قوة ، فى حين كانت الشمس تلمس حافة الأفق . **آه !.. لقد أصبح قريبا من العلامة الآن !.. ان فى استطاعته ان يرى القوم على التل وهم يلوحون له بأيديهم ويستحثونه .. وبات فى امكانه أن يرى القبعة المصنوعة من فرو الثعلب ملقاة على الأرض ، والنقود فيها ، والرئيس بجانبها ويداه على جنبيه** .. وفجأة تذكر باخوم حلمه .. وراح يفكر قائلا : « ولو اننى أصبحت مالكا لأرض كثيرة الآن ، فكم أتمنى على الله فقط لو أوصلنى سالما لأتمتع بها .. ولكن قلبى يحدثنى بأننى قد قتلت نفسى ! »

وما فتىء يجرى .. وفى آخر لحظة ، نظر نحو الشمس، فاذا بها تبدو كبيرة ، وحمراء ، وقد مست الأرض وبدات تغوص خلف الأفق .. ووصل الى التل فى الوقت الذى غربت فيه ، فصاح فى يأسه قائلا : « آه !.. » اذ ظن أن كل شىء قد ضاع . وفجأة ، تذكر أن الرجال فوق التل على مرتفع منه ، وان الشمس بالنسبة اليهم لم تغرب بعد .. فاندفع الى الرابية . وأمكنه أن يرى - وهو يزحف - أن القبعة مازالت هناك . ثم كبا وسقط . ولكنه مد ذراعيه - وهو يسقط - نحو القبعة امسك بها !

وصاح الرئيس قائلا : « آه . لاشك أنك - أيها الشاب - قد حزت لنفسك كثيرا من الأرض » .

وجرى خادم باخوم نحو سيده ، وحاول أن يرفعه ، ولكن الدماء كانت تجرى من فمه . وقد رقد ميتا .. وصاح الخادم فى فزع .. ولكن الرئيس ظل جالسا يضحك، ويداه على جنبيه . وأخيرا ، وقف وأخذ معولا من الارض ، والقى به الى الخادم . وكان كل ما قاله له : « ادفنه ! »

ووقف رجال « الباشكير » فترة ، ثم انصرفوا . ولم يبق الا الخادم ، الذى حفر قبرا على قدر طول « باخوم » - من راسه الى قدميه - وكان ثلاثة أذرع روسية .. فدفنه فيه !

حكمة سولون

• فى قديم الزمان ، قبل مجىء المسيح بوقت طويل ، تولى حكم بلد من البلدان ملك عظيم يسمى «كروسوس» ، كان يمتلك كثيرا من الذهب والفضة ، وعددا وفيرا من الاحجار النفيسة .. وتحت امرته ما لا يعد ولا يحصى من العسكر والعبيد . وكان يعتقد موقنا أنه ليس فى العالم كله من هو أسعد منه .

واتفق ذات يوم ، أن زار البلد الذى كان ذلك الملك يحكمه ، فيلسوف يونانى عظيم اسمه « سولون » ، اشتهر فى البلاد كلها بأنه عادل وحكيم . واذ كانت شهرته قد بلغت مسامع « كروسوس » . فقد أمر بأحضاره ليمثل امامه .

وكان الملك متربعا على عرشه ، ومتسربلا بأبهى حلله ، حين جاء سولون . فسأله الملك : « ارأيت من قبل أفخر أو اكثر ابهة مما ترى ؟ » .

فأجاب سولون قائلا : **« بالتأكيد .. رأيت كثيرا من الطواويس والديكة ، تتالق بأبهى الاردية وأزهى الالوان ، التى لا يمكن أن تضاهيها صنعة أو يحاكيها فنان »** .

فصمت كروسوس ، وراح يفكر فى نفسه قائلا : « مادامت هذه لم تبهره او ترضيه ، فلأطلعنه على المزيد ، ولأثيرن

دهشته ! » .. ومن ثم انطلق يعرض امام عينى الفيلسوف كل ثرواته ومقتنياته ، وراح يزهو ويتباهى بعـدد من ذبح من الاعداء ، وما فتح من البلاد ، وما سـبى من العبيد والاماء . ثم التفت الى الفيلسوف قائلا : « لقد قدر لك ان تعيش كثيرا من السنين ، وان تزور كثيرا من البلدان ، فقل لى ، من ذا الذى تعتبره أسعد انسان فى الدنيا ؟ »

فأجابه قائلا : **« ان الذى أعتبره أسعد انسان فى الدنيا هو رجل فقير يعيش فى آثينا »** .

فدهش الملك من هـذا الجواب ، لأنه كان واثقا من أن الفيلسوف سيذكره هو بالذات ، فاذا به – برغم ما رأى – يذكر انسانا مغمورا لا يعرفه احد . ومن ثم سـأله قائلا : « لماذا تقول ذلك ؟ »

فقال سولون : « لأن الرجل الذى اتكلم عنـه قد كافح كل حياته ، وقنع بالقليل ، وقد قام بتربية أطفاله بأخلاص ، وخدم أهل مدينتـه بشرف ، وجعل لنفسه احدوثة طيبـة وسمعة نقية طاهرة » .

فلما سمع كروسوس ذلك قال محتدا : « واذن فهـل تعتبر سـعادتى غير ذات قيمة ، وتعتبرنى غـير اهل لأن اقارن بالرجل الذى تتحدث عنه ؟ »

فأجابه سولون قائلا : **« كثيرا ما يحدث أن يكون رجـل فقير أسعد من رجـل غنى . ولا ينبغى لك أن تصف رجلا بأنه سعيد ، حتى تنتهى أيامه ويموت ! »**

فاستاء الملك من كلمات سـولون ، واستشـاط غضبا من

حكمته فطرده ، قائلا فى نفسه : « انه لمجنـــون ! وان على الانسان طالما هو حى ان يغترف قدر طاقته من المسرات » .

***

ونسى الملك بعد ذلك « سولون » ، تمام النسيان .

الا أنه لم يمض وقت طويل ، حتى حدث أن ذهب احــد ابناء الملك ليصطاد ، فأصيب – لسوء الحظ – بجرح مات من جرائه . ثم جاءت الانبـــاء الى « كروســوس » بأن الامبراطور القوى « سيروس » قادم ليحاربه .

وخـــرج « كروسوس » على رأس جيش عظيـم للقاء « سيروس » .. ولكن العدو ما لبث أن تفوق عليه ، وأفنى جيشه ، ودخل ظافرا الى عاصمة ملكه .

وبدأ الجنود الاغراب ينهبـــون أملاك الملك كروسوس ويذبحون رعيته ويحرقون المدينة . وقبض أحد الجنود على « كروسوس » نفسه ، وكان على وشك أن يطعنه ، لولا أن اندفع ابن للملك متصديا للذود عن ابيه ، وصرخ قائلا : « لا تلمسه ! انه كروسوس الملك ! » ..

ومن ثم أحاط الجند بكروسوس وأوثقـوه وحملوه الى الامبراطور . ولكن هذا كان يحتفل بنصره فى مأدبة عظيمة ، فلم يتمكن من مخاطبة الأسير ، وأصدر الأمر بأعدامه .

وفى وسط ميدان المدينة ، أعد الجنود كومة كبيـرة من الحطب ، ووضعوا الملك على قمتها ، وقد ربطوه فى صارية ، وأشعلوا النار فى الحطب .

وتطلع كروسوس حواليـــه الى مدينته ، والى قصره ، وعندئذ تذكر كلمات الفيلسوف اليونانى ، فانفجرت الدموع من عينيه وهو يردد قائلا : « سولون !.. سولون ! » .

وكان الجنود يحيطون بالحطب المشتعل حين وصـــل الامبراطور «سيروس» بشخصه ليشهد الاعدام ، فالتقطت اذناه الكلمات التى فاه بها كروسوس ، ولكنـــه لم يفهمها ، فامر باقصاء « كروسوس » عن الحطب ، وطلب اليـــه أن يحدثه عما كان يقول ، فاجاب كروسوس قائلا : **« انما كنت أردد اسم رجل حكيم ، كان قد ذكر لى حقيقة عظيمة .. حقيقة تساوى اكثر من كل ثروات الارض .. اكثـــر من مجدنا الملكى ! »**

وروى « كروسوس » حديثة مع ســـــولون ، فمست القصة قلب الامبراطور ، لانها علمته انه هو الآخر لا يعـدو ان يكون بشرا .. وانه كذلك لا يعلم ما يخبئه له القدر من احداث .

ولم يتمالك – فى نهاية الامر – ان عفا عن « كروسوس » واكرمه ، وقربه اليه ، فأصبحا صديقين حميمين .

اصل عنوان هذه القصة : ((كيف كفر الشيطان الصغير عن حادث كسرة الخبز)) !

١٠٠ -

• **خرج** فلاح فقير يوما ليحرث أرضه ، ولم يكن لديه ما يفطر به ، فلم يأخذ معه الا كسرة خبز للفداء .. وفى الحقل، وضع الكسرة فوق أكمة ، وغطاها بثوبه ، ثم أمسك بالمحراث، وبدأ يشق بطن الأرض .. حتى اذا عضه الجوع ، ترك محراثه وذهب ليأتى بغدائه ، فما ان رفع الثوب حتى اجفل .. **فأين كسرة الخبز ؟.. انها لم تكن هناك ..** وأخذ يبحث عنها ، وقلب الثوب وهزه ، ولكنه لم يجدها .. فدهش أيما دهشة .. وبدا له الأمر عجيبا غاية العجب ، وقال فى نفسه : « لم أر أحدا يأتى هنا ويأخذها ! »

الا أن واقع الأمر أن شيطانا صغيرا أتى وسرق الكسرة حين كان الفلاح يحرث ، وقبع خلف الأكمة ليستمتع بسماع الفلاح وهو يسب ويلعن بسبب ما فقده .

وقنط الفلاح واكتأب جدا ، الا أن كل ما فعله هو أن قال : « حسنا ، اننى لن أموت من الجوع . ولابد أن الذى أخذ الكسرة محتاج اليها ، فليأكلها وليهنأ بها » .. ثم ذهب الى النبع ، وشرب جرعة ماء ، واستلقى قليلا على الأرض حتى استراح ، قبل أن يعود الى المحراث مرة أخرى ، ويستأنف عمله .

ومن ثم فقد خاب أمل الشيطان الصغير ، اذ فشل فى دفع الفلاح الى ارتكاب الخطيئة . وانطلق مسرعا الى الجحيم ليروى لرئيس الشياطين كيف أنه سرق كسرة الفلاح ، فلم يفعل هذا الا أن دعا للسارق وباركه . فلما سمع رئيس الشياطين ذلك منه غضب غضبا شديدا ونهره قائلا : « اذا كان الفلاح قد انتصر عليك فلابد أنك أنت المخطىء دون سواك ، ولابد أنك لم تسلك فيما فعلت سواء السبيل .. وأنها لسابقة خطيرة — ولا شك — أن يمتنع الفلاحون عن

السب واللعن ، ثم يتبعهم فى ذلك العجائز من نساءهم . وتكون النتيجة أننا يستحيل علينا أن نعيش على الاطلاق . كلا . ان الأمر لايحتمل أى تهاون ، من جانبنا ، ولا ينبغى أن يترك هكذا » .. ثم أردف قائلا : **((اذهب مرة أخرى وأعد للفلاح كسرته ، واذا عجزت خلال ثلاث سنوات منذ اليوم ، عن أن تحصل منه على نتيجة أفضل ، فاننى سأغطسك فى الماء المقدس !))**

وفزع الشيطان الصغير فزعا شديدا لمجرد ذكر الماء المقدس ، فمرق مسرعا نحو الأرض . وهناك استغرق فى التفكير منقبا فى ذهنه عن الوسيلة التى يصلح بها خطأه .. وراح يفكر ثم يفكر ، وأخيرا اهتدى الى الخطة الكفيلة بذلك .. فاتخذ لنفسه مظهر أحد الحجاج ، واشتغل عاملا عند الفلاح . وقد أشار عليه أول الأمر بأن يأخذ حذره من شدة حرارة الصيف القادم ، فيبذر حبوبه فى الأرض المنخفضة . وبالفعل جاء الصيف قانطا فاحترقت محاصيل الفلاحين جميعا من شواظ الشمس ، الا حنطة فلاحنا هذا ، فانها ما فتئت تنمو وتطول عيدانها ، ثم انبجست الحبوب آخر الأمر فى أطرافها مكتنزة وفيرة ، حتى لقد كفى محصولها الفلاح طول الموسم ، وفاض منه بعد ذلك الكثير .

***

• **واذ** جاء الصيف التالى ، أشار الحاج على الفلاح بأن يبذر غلته فى الأرض المرتفعة . وقد كان الفصل بالفعل غزير الأمطار ، فغرقت محاصيل الفلاحين جميعا أو عطنت فلم تنضج ابدا ، الا محصول فلاحنا ــ فوق التل ــ فقد كان محصولا رائعا ، غل من القمح قدرا يفيض عن حاجته ، ولم يكن ليعرف ماذا يفعل به . فأشار عليه الحاج بأن ينتفع

بالفائض ، فيستقطر منه شراب « الفودكا » .. وقد استقطره الفلاح فعلا ، ثم شربه . وما لبث أن دعا جيرانه ليشربوا معه . وعند ذلك أسرع الشيطان الصغير الى رئيسه ليقول له مختالا بأنه قد كفر عن ذنبه فى حادثة كسرة الخبز ، فجاء رئيس الشياطين ليرى بنفسه .

واذ بلغ رئيس الشياطين كوخ الفلاح ، وجده قد دعا بعض أثرياء الفلاحين ، وأعد لهم وليمة « فودكا » . فلما جاءت زوجته بالشراب ، زلت قدمها فانقلبت احدى الزجاجات ، وانسكب على الأرض كل ما كان فيها ، فكاد الفلاح أن ينشق غضبا . وراح يعنف زوجته أشد التعنيف ، قائلا لها : « ماذا فعلت أيتها المجنونة الخرقاء ؟.. أتريقين كل هذا الشراب على الأرض ؟ »

فوكز الشيطان الصغير رئيسه بكوعه قائلا له : « أنظر !.. انها ليست كسرة خبز التى يسب من أجلها الآن ويلعن ! »

وعاد الفلاح – بعد أن نهر زوجته – يوزع « الفودكا » ويدور بها على ضيوفه بنفسه . وفى هذه الأثناء ، دخل الكوخ عامل فقير عائد من عمله . ولم يكن أحد قد دعاه ، الا أنه حيا الجماعة وجلس . وما لبث أن أدرك أن الضيوف يشربون « الفودكا » فتاقت نفسه لجرعة منها ، لأن التعب كان قد أنهكه . الا أن الجلوس طال به ثم طال ، وراح لعابه يسيل ثم يسيل ، ولم يقدم له أحد شيئا!

وانشرح رئيس الشياطين أيما انشراح بما رأى ، الا أن تابعه قال فى زهو : « انتظر قليلا ، ولسوف ترى ما هو أفضل ! »

وشرب الفلاحون زجاجتهم الأولى من « الفودكا » ، واشترك مضيفهم معهم ، ثم بدأوا يطرون بعضهم بعضا فى رياء وملق ، ويتبادلون الكلمات الناعمة المعسولة .. ورئيس

الشياطين ينصت بانتباه ، وقد أعجبه ذلك ، فغمز قائلا : « اذا كانوا قد أصبحوا ماكرين هكذا بعد اول زجاجة ، فلسوف نراهم - بعد هنيهة - يوغلون فى خداع بعضهم البعض . وعندئذ سنكسبهم جميعا ! » . فقال الشيطان الصغير : « انك لم تر شيئا بعد ، فانتظر وانظر ما سيحدث بعد ذلك .. سترى مافيه الكفاية بعد ان يشربوا زجاجتهم الثانية ، فهم الآن يتمسحون - كل بفروة الآخر - كما تفعل الثعالب . ولكن انتظر وانظر اى ذئاب مفترسة سيغدون بعد حين ! »

***

وشرب الفلاحون زجاجة أخرى ، فازداد حديثهم ارتفاعا ، وقل تأدبا .. وبدلا من الكلمات المعسولة ، بدأوا يقذفون بالشتائم والتهديدات ، ويلكزون بعضهم البعض ، ويقرصون الواحد منهم أنف الآخر . واشترك مضيفهم كذلك فى المعمعة ، وساهم فى المعركة . فلما رأى رئيس الشياطين ذلك ، استخفه السرور وصاح قائلا : « عظيم ! » .. الا أن الشيطان الصغير اعترضه قائلا : « انتظر حتى يحتسوا زجاجتهم الثالثة . فهم الآن كالذئاب المزمجرة ، ولكن .. صبرا قليلا ، واعطهم زجاجة أخرى ، فسوف تراهم قد انقلبوا محض خنازير ! »

وشرب الفلاحون زجاجة ثالثة أداروها بينهم ، فسكروا تماما . وراحوا يصرخون ويصخبون دون أن يدرى أحدهم ما يقول ، أو يفقه ما يقول الآخرون . وأخيرا ، غادروا الكوخ ، وذهب كل منهم فى طريقه .. فسار بعضهم منفردا ، والبعض الآخر اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة .. وهم جميعا يتمايلون ويتأرجحون . وقد خرج مضيفهم ليودعهم ، فوقع

منبطحا على أنفه فى بركة موحلة ، وتلطخ من رأسه الى قدميه ، وظل مستلقيا مكانه كالخنزير البرى ، وهو يخود !

وامتلأت بالسرور جوانح رئيس الشياطين ، واستخفه الطرب ، فالتفت الى الشيطان الصغير قائلا : « انها لخطة بارعة تلك التى دبرتها ، وقد كفرت الآن عن خذلانك فى حادثة كسرة الخبز ، وأوفيت على الغاية . ولكن أخبرنى الآن : كيف صنعت هذا الشراب ؟.. أظن أن عنصرك الأول فى تركيبه هو دم الثعلب ، ليجعل الفلاح يغدو ماكرا .. وعنصرك الثانى هو دم الذئب ، ليجعله يغدو متوحشا .. وعنصرك الثالث هو دم الخنزير ، ليجعله يغدو خنزيرا ! »

فأجاب الشيطان الصغير قائلا : « كلا .. لم أستعمل شيئا من ذلك على الاطلاق ، وانما **كل ما فعلته هو أن جعلت الفلاح يزرع كمية من القمح تفيض عن حاجته . هذا كل ما فى الأمر !.. أما دماء الوحوش ، فقد كانت تجرى فيه بالفعل من قبل . وهى تجرى فيه دائما . ولكنها لاتجد منفذا للظهور مادام لايزرع من القمح الا القدر اللازم لغذائه .** لقد جاء وقت - كما قد تذكر - لم يكن يتذمر فيه حتى لفقدان كسرته الوحيدة . فلما توفر لديه قدر فائض من القمح ، راح يبحث عن وسيلة يسلى بها نفسه . وقدتدرجت معه ثم تدرجت ، حتى علمته هذه الوسيلة الجديدة للتسلية .. وهى الشراب . فما أن حول نعمة الله الى شراب ، حتى تيقظت فيه دماء الثعلب ، ودماء الذئب ، ودماء الخنزير جميعا . والآن وقد ذاق طعم الشراب مرة ، فسيظل وحشا مفترسا الى الأبد ! »

فهنأ رئيس الشياطين تابعه الصغير تهنئة حارة ، وعفا عن زلته فى حادث كسرة الخبز ، وأنعم عليه برتبة عالية فى مملكة الشياطين .

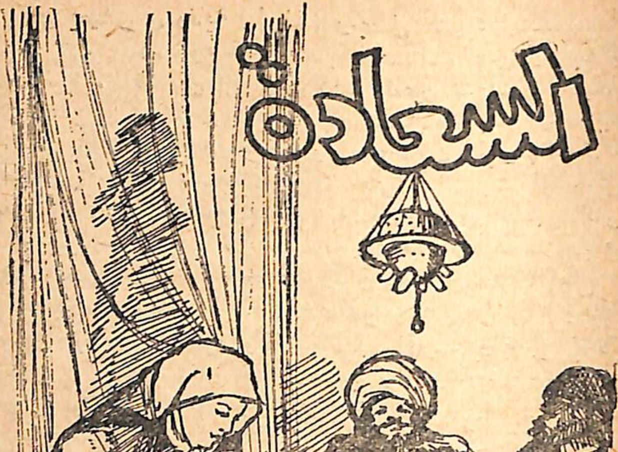
السعادة

• **كان يعيش فى ولاية (أوفا) رجل غنى ، اسمه** « الياس » . وكان أبوه قد مات بعد سنة من زواجه ، وتركه فقيرا . فلم تكن ثروته فى ذلك الحين تتعدى سبعة أفراس وبقرتين وعشرين شاة . الا أنه ما لبث أن انكب على العمل والكدح مع زوجته ، وراحا يصلان الليل بالنهار ، فيقومان من نومهما مبكرين ، حتى اذا غابت الشمس استمرا يكدان تحت جنح الظلام ، متجاوزين فى السهر أكثر من كل جيرانهما . ومن ثم فقد راح غناهما يزداد سنة بعد أخرى . حتى اذا انقضى خمسة وثلاثون عاما فى هذا الكفاح ، كانا قد جمعا ثروة طائلة ، تألفت من مائتى فرس ، ومائة وخمسين كبشا ، ومائتين وألف شاة .. واصبح لدى « الياس » رجال يرعون خيله وغنمه وماشيته ، ونساء تحلبن الافراس والابقار وتصنعن منها الزبد والجبن و « الكوميس » .

وبات لديه الكثير من كل شيء .. فاصبح كل من فى الولاية يحسدونه على ثروته ، ولا ينفكون يقولون : « ياله من رجل سعيد ، فكل شيء عنده متوفر ، وليس ثمة ما يحبب اليه الموت ! » .. وكان الاعيان يعجبون لكثرة معرفته وتهذيبه ، متسائلين : « متى حصل على كل هذا ؟ » .. وكان الضيوف يأتون من أقصى الاماكن ليزوروه ، فكان يستقبلهم ، ويرحب بهم ، ويدعوهم الى الطعام والشراب .. وما من شخص كان يدخل بيته ، الا قدم اليه «الكوميس» والشاى وعصير الفواكه ولحم الضأن المقدد .. وما من ضيف نزل عليه ، الا بادر « الياس » الى ذبح شاة أو اثنتين .. فاذا كان الضيوف عديدين ، ذبح فرسا من أجلهم !

ولقد رزق « الياس » بولدين وبنت ، زوجهم جميعا حين

بلغوا سن الزواج . وكانوا قد اشـــتغلوا معه - فى أيام الفاقة - وتولوا بأنفسهم رعى الماشية . بيد انهم لم يكادوا يثروا ، حتى اقبلوا على الملـــذات ، واسرفوا فى اللهو .. ومنهم واحد افرط فى معاقرة الخمر .. على ان اكبر ولدى « الياس » لم يلبث ان قتل فى مشاجرة ، بينما خرج الثانى على طاعة ابيه ، اذ كان قــد وقع تحت سلطـان زوجـة خبيثــة .. فطرده أبوه ، وان منحــه منزلا وقطيعـا من الماشية . فتناقصت بذلك بعض الشىء ثروته .

ثم حدث - بعــد ذلك - أن أصيبت ماشية « الياس » بوباء ، ومات جانب منها .. وتلا ذلك عام من القحط ، لم تنم فيه الحشائش والمراعى ، فنفق كثير من الأغنام خلال الشتاء ، وأغارت عليه بعــد ذلك قبائل الشركس فسرقوا أحسن أفراسه . ومن ثم راحت ثروته تتنــاقص بسرعة مروعة ، وبدأ يسقط فى هوة الافلاس بخطوات شاسعة ..

بينما قل جهده ، ونقص مقدار كده وكدحه . حتى اذا بلغ السبعين من عمره ، كانت الحال قد تدهورت به الى حد أن باع ثيابه ، وأبسطته ، وعرباته ، وأسرجة خيله .. وأخيرا باع آخر قطيع بقى له من ماشيته ، فوصل الى الفقر المدقع . واذ رأى انه لم يبق لديه شىء ، ذهب هو وزوجته يقضيان البقية من سنى حياتهما الغاربة بين الغرباء ، بعد أن فقد الرجل كل شىء ولم يعد له من حطام الدنيا الا الملابس التى على جسده - وهى معطف من جلد الماعز ، وقبعة ، وسروال ، وحذاءان - ولم يعد له من يعينه على شيخوخته الا زوجته « شام شيماجى » ، التى كانت فى سن الشيخوخة مثله .. فقــد كان ابنه الذى سبق له أن طرده قــد رحل الى بلاد بعيدة ، وكانت ابنته قد ماتت . ومن ثم فقد أصبح الشيخ وزوجته فى حال مؤلمة من البؤس واليأس .

***

الا أن أحد جيرانهما ، المسمى « محمد شاه » ، تألم لحالهما . وكان رجلا متوسط الحال ، فلا هو بالفقير ولا هو بالغنى . الا انه كان مستقيما ، ومستورا ، وموضع احترام . واذ تذكر الأيام التى أكل فيها العيش والملح فى بيت الياس ، تفطر قلبه ألما عليه ، وقال له : « تعال وعش معى يا الياس ، وهات امرأتك العجوز معك .. ففى امكانك — فى موسم الصيف — أن تقوم من أجل خاطرى ، وعلى قدر طاقتك ، بملاحظة حقول الشمام . وفى امكانك — فى موسم الشتاء — أن ترعى ماشيتى ، فى حين يمكن لزوجتك « شام شيماجى » أن تحلب الأفراس وتصنع « الكوميس » . وسوف أقدم لكما الطعام والملبس ، فاذا احتجت لشىء آخر فقل لى سريعا ، وأنا امنحك اياه » .

وشكر الياس جاره الطيب القلب ، وذهب مع زوجته العجوز ليعيش فى خدمة « محمد شاه » . وكانا — فى أول الأمر — يجدان غضاضة فى ان يفعلا ذلك . الا انهما ، مع الوقت ، ألفاه واطمأنا الى العيش هناك ، لاسيما انهما لم يكونا يعملان الا قدر ما تسمح به قوتهما .

وقد ارتاح السيد اليهما ، لانهما — وقد مارسا السيادة والعز — كانا يعرفان كيف يحسنان التصرف . فضلا عن انهما لم يكونا قط كسولين ، ولا قليلى الفهم ، وانما كانا يؤديان عملهما كأحسن ما يؤدى العمل . ومع ذلك فقد كان « محمد شاه » ما يفتأ يستشعر الأسى والأسف اذ يرى هذين الشيخين — اللذين بلغا ارفع مكانة — ينحدران هكذا الى مثل هذا المصير !

وحدث ذات مرة ، أن جاء بعض أقارب « محمد شاه »

ليزوروه . وكان معهم شيخ من رجال الدين ، فطلب محمد شاه من الياس أن يذبح شاة ليقدمها لضيوفه .. فذبح الياس الشاة وسلخها وطهاها وأرسلها الى غرفة الطعام .. وأكل الضيوف من لحم الشاة ، واحتسوا أقداح الشاى و « الكوميس » .. وبينما هم جلوس مع مضيفهم فوق الأبسطة والوسائد الوثيرة ، يشربون ويتسامرون ، مر الياس أمام باب الغرفة وهو يؤدى عمله ، فلمحه « محمد شاه » .. واذ ذاك مال على أحد الضيوف قائلا له : « أرأيت هذا الرجل الهرم الذى مر بالباب الآن ؟ » . فأجابه الضيف قائلا : « نعم رأيته ، فما حكايته ؟ » . فقال له : « ان اسمه الياس ، وقد كان فى يوم من الأيام أغنى رجل فى هذه المقاطعة ، ولابد أنك سمعت عنه ! » . فقال الضيف : « نعم ، سمعت عنه ، الا ان هذه أول مرة أراه فيها ، على الرغم من ذيوع شهرته » . فقال محمد شاه : « انه الآن لا يملك شيئا على الاطلاق ، وهو يعيش فى بيتى كخادم لى ، وزوجته العجوز تعيش معه ، وتحلب الأبقار » .

ودهش الضيف أعظم الدهشة ، وهز رأسه فى أسف وهو يقول : « **حقا ان الثروة كالطاحونة الدائرة ، فهى ترفع حينا وتخفض حينا آخر .. ولكن هل الرجل متألم مما آلت اليه حاله ؟** » .. فأجابه المضيف قائلا : « من يدرى ؟.. انه يعيش فى دعة وسلام ، ويؤدى عمله خير أداء » . فقال الضيف : « هل يمكننى اذن أن أتحدث اليه ؟.. اننى أحب أن أسأله عن حياته السالفة » . فأجابه قائلا : « بالتأكيد ! » .. وصاح مناديا خلال فرجة الباب : « يا عم ، تعال وهات لنا معك بعض الكوميس ، وادع زوجتك أيضا ! »

***

وأقبل الياس وزوجته على الغرفة . وبعد أن أديا التحية لسيدهما وضيوفه ، جثا الشيخ قرب الباب ، وجلست زوجته خلف الستار ، حيث كانت سيدتها جالسة .. وقدم الحاضرون الى الياس كوبا من «الكوميس» ، فدعا لسيده وضيوفه بدوام الصحة ، وانحنى لهم ، ثم شرب قليلا من الكوب ووضعه . وحينئذ سأله الضيف : « أيها الشيخ ، قل لى .. هل يؤلمك الآن — اذ تنظر الينا — أن تتذكر ثروتك الغابرة ، فتقارن بين حالك — اذ ذاك — وما أنت فيه الآن من بؤس ؟ »

فابتسم الياس وأجاب قائلا : « اذا حدثتكم عن سعادتنا أو شقائنا ، فلن تصدقونى .. فالأفضل أن تسألوا زوجتى ، فان لها قلب امرأة ولسان امرأة معا ، ولسوف تقول لكم الحقيقة كلها فيما يتعلق بهذا الموضوع » .

اذ ذاك نادى الضيف المرأة العجوز الجالسة خلف الستار قائلاً لها : « قولى لنا أيتها العجوز ، ما احساسك نحو سعادتكما الغابرة وشقائكما اليوم ؟ » . فأجابت شام شيماجى ، من خلف الستار : « لقد عشت مع زوجى نحو خمسين سنة ننشد السعادة ولا نجدها أبدا .. أما الآن ، فاننا — وان عشنا كخدم — قد وجدنا السعادة الحقيقية ، ولا نطمع فى شىء آخر ! »

وعجب لذلك الضيوف والمضيف على السواء ، حتى ان هذا الاخير وقف على قدميه — لفرط دهشته — ورفع الستار لينظر الى المرأة العجوز .. وكانت واقفة هناك ، ويداها متشابكتان على صدرها ، وابتسامة مشرقة على وجهها ، وهى ترنو الى زوجها فيبتسم لها بدوره . ثم عادت تقول : « اننى أذكر الحقيقة ، ولست أمزح . فقد

ظللنا - نصف قرن - ننشد السعادة ولا نجدها ، على الرغم من اننا كنا أغنياء .. أما الآن ونحن لانملك شيئا ، وقد أتينا لنعيش بين قوم فاضلين ، فقد وجدنا من السعادة ما لا مطمع لنا فى زيادة عليه ! »

وعاد الضيف وسألها : « وما الذى يسعدكما ؟ » .. فأجابته قائلة : « عندما كنا أغنياء ، لم نعرف قط ساعة من ساعات السلام التى يمكننا فيها أن نتبادل الحديث ، أو أن نفكر خلالها فى أنفسنا ، أو أن نصلى الى الله .. فقد كنا - اذا أقبل ضيوف علينا - نشغل تماما بالتفكير فى اكرامهم حتى لايسخروا منا أو يهزأوا بنا .. ثم ما نفتأ نبذل أقصى جهدنا فى خدمتهم والاحتفاء بهم ، حتى لاندع سبيلا لهم لأن يقارنوا مائدتهم وضيافتهم بمائدتنا وضيافتنا ، وأن يجعلوا هذه المقارنة فى غير مصلحتنا .. كنا نبذل كل ما فى طاقتنا لارضائهم ، وتجنب كل ما يثير سخطهم أو حنقهم علينا .. وذلك فضلا عن المخاوف العديدة التى كانت تساورنا باستمرار ، من أن يفترس الذئب كبشا من كباشنا أو بقرة من أبقارنا ، أو أن يسرق اللصوص بعض خيلنا ، أو أن ترقد النعاج على حملانها فتقتلها .. حتى اذا غشينا فراشنا لننام ، امتنع النوم علينا ، اذ نجدنا محاصرين بأسباب الجزع والقلق وانشغال البال بصدد المشاكل التى تعترضنا .. الى جانب ما كان ينشب بينى وبين زوجى من خلاف حول الطريقة التى نحل بها هذه المشاكل ، اذ كنا لا نتفق أبدا على رأى واحد .. فهو يقول ان الأمر يجب أن يعالج بهذه الطريقة ، وأنا أقول بل يجب معالجته بطريقة أخرى ، ومن ثم نبدأ فى الشجار ، فنرتكب بذلك عملا آخر من اعمال الخطيئة . وهكذا كانت الحياة تقودنا

من هم الى هم ، ومن اثم الى اثم ، ولكنها لم تكن تقـودنا أبدا الى السعادة التى ننشدها ! »

وسألها الضيف قائلا : « وكيف حالكما الآن ؟ » . فأجابت العجـوز : « حينما نصحو – أنا وزوجى – فى الصـباح ، يحيى كل منا الآخر فى محبة ووئام .. ولم نعد نتشاجر او نختلف عـلى شىء ، أو نحمـل هم شىء ، بل أصبح همنـا الأوحد هو التفكير فى الوسيلة التى نحسن بها خدمة سيدنا .. وأصبحنا نعمل على قدر طاقتنا ، وعن طيب خاطر ، لكى يستفيد مخدومنا ولا تلحق به خسارة من جرائنا .. ونحن عـلى الدوام واجدان فى بيته غداءنا ، وعشـاءنا ، وشراب « الكوميس » .. وفى البرد نجد الوقود ليدفئنا ، وأردية الجلد لتقى من الصقيع جسدينا .. ولدينا – فوق ذلك – الوقت الكافى لنتبادل الحديث ونفكر فى روحينا ، ونصلى الى الله .. وهـكذا ظللنـا خمسين سنة ننشـد السعادة ، ولكننا لم نجدها الا الآن ! »

وانفجر الضيوف ضاحكين ، ولكن الياس صاح قائلا : « لا تضحكوا أيها السادة الأفاضل . **فليس هذا مزاحا ، وانما هو حقيقة الحيـاة البشرية ، فقـد كنا أنا وزوجتى منفطرى القلب .. وكم بكينا حين فقدنا ثروتنا وغنانا .. أما الآن ، فان الله قد كشف لنا الحقيقة .. وها نحن قـد كشفناها لـكم بدورنا ، لا على سبيل التسلية ، وانمـا لصالحكم ومنفعتكم ! »**

فقال رجـل الدين ، الـذى كان حاضرا مع الضيوف : « انه لقول حكيم .. ولقد قرر الياس الحقيقة ، كما هى موجودة فى الكتاب المقدس » .

وحينئذ كف الضيوف عن ضحكهم ومزاحهم ، وغرقوا فى تأمل عميق .

هذه هي الحياة!

• حدث ذلك في اليوم التالي لعيد القديس « نيكولا » ، وكان سادن الكنيسة « فاسيلي اندريتش بريخانوف » ، قد بقي بالمنزل كي يقوم بواجب الضيافة نحو بعض اصدقائه وأقربائه ، حتى اذا انصرف آخر أولئك الضيوف ، أخذ أهبته لزيارة أحد الملاك المجاورين ، كي يبتاع منه مخزن أخشاب كان يساومه على شرائه منذ زمن طويل . **فقد كان « فاسيلي » – الى جانب وظيفته في الكنيسة – يشتغل بالتجارة . ومن ثم فقد كان – في ذلك اليوم – شديد اللهفة على التبكير بالخروج ، لئلا يحرمه المنافسون – الآتون من المدينة – هذه الصفقة الرابحة .**

وانطلق نيكيتا لاعداد الجواد ، اذ كان هو الوحيد بين الخدم الذي لم يكن مخمورا في ذلك اليوم .. كان فيما سلف أكبر عربيد ، الا انه – بعد ان رهن رداءه وحذاءيه من أجل الشراب – أقسم الا يقرب كل انواع الخمور ، واحترم قسمه فعلا طيلة الشهر التالي ، وظل مصمما عليه في هذه المناسبة الأخيرة ، رغم الذي عاناه من أغراء الخمر التي كانت تتدفق أينما ذهب خلال اليومين الأولين من ايام العيد .

وكان من طبقة الفلاحين الملقبين « بالمازيك » .. في نحو الخمسين من عمره ، وقد نزح من أحدى القرى المجاورة ، حيث لم تكن له أسرة مقيمة ، وأنما كان معروفا لدى الجميع بأنه عاش معظم حياته متنقلا بين منازل الآخرين . وكان أينما حل يلاحقه الاعجاب والتقدير لمهارته ومثابرته وقوة

بنيته .. ولدماثته ومـــــرح طبيعته فوق ذلك . على ان الاستقرار لم يكن يطول به فى مكان واحد . اذ كان قد اعتاد أن يسرف فى الخمر مرتين أو أكثر فى الســـنة .. وفى تلك المرات ، لم يكن الامر ينتهى به الى ان يرهن كل شىء يملكه ، فضلا عن انه كان يغدو عربيــدا شرسا شديد الرغبـــة فى الشجار والشحناء . وقد اضطر فاسيلى ذاته الى طرده أكثر من مرة . الا انه كان لا يلبث أن يعيده الى خدمته ، لما لمسه من أمانته ، وعنايته بالماشية .. وأهم من كل هذا ، لما آنسه من قلة أجره ! .. فالواقع ان « فاسيلى » كان ينقد « نيكيتا » أجرا .. ولكن هـــذا الاجر لم يكن ثمانين من الروبلات فى السنة ، كما جرى عليه العرف لمثل هذا العامل .. وانما كان يعطيه أربعين لا تزيد بأى حال . ثم كان — فوق ذلك — لا يدفع له هذا القدر دفعة واحـــدة ، وانما كان يتفضل به عليه قطرة قطرة ، على أقساط وآجال .. وكان بعد ذلك كله لا يعطيه الجانب الاكبر منـــه نقدا ، وانما فى صورة سلع من متجره يبيعه اياها بالثمن الغالى .

أما « مارتا » ، زوجة نيكيتا — وهى امرأة خشـــنة ، مشعثة ، برغم انها كانت جميلة فى يوم من الايام — فقـــد كانت تعيش فى المنزل مع ولد صغير وبنتين . ومع ذلك ، فما كانت تدعو أبدا زوجها ليأتى ويراها .. لأنها — قبـل كل شىء — كانت تقيم فى العشرين عاما الاخيرة مع صـــانع براميل ، كان فى الاصل من طبقة الفلاحين فى قرية بعيدة ، ثم جاء ليقيم معها .. ولأنها — بعـــد ذلك — كانت تخشى زوجها وتخافه — اذا ما ثمل — برغم انها كانت تتصرف معه حسب هواها حينما يكون مفيقا . فقد حدث مرة انه اكثر من احتساء الخمر ، وانتهز فرصة سكره ، فاعتزم أن ينتقم لنفسه من زوجته عن كل ما صنعت به خلال أفاقته . ومن

ثم انقض على صندوقها الخاص ، وكسره ، وأخذ كل ما كان به من ثياب ، فوضعها على كتلة خشبية ثم انهال عليها بالفأس حتى أحالها الى قطع صغيرة مهلهلة .. ومع ذلك فقد كان يسلم مارتا كل ما يحصل عليه من الاجر . وما من مرة نازع فى هذا النظام .. بل انها ذهبت — قبيل هذا العيد الاخير — الى متجر فاسيلى ، فأمدها هذا بالدقيق الابيض والسكر والشاى وزجاجة كبيرة من الفودكا ، باعتبار كل ذلك بثلاثة روبلات . واذ كان ما أعطاها اياه يساوى خمسة روبلات ، فقد شكرت لفاسيلى كرمه ومعروفه .. **الا أن فاسيلى — فى الحقيقة — حاسب نيكيتا على هذه السلع فيما بعد ، باعتبار ثمنها عشرين روبلا !**

وقد قال فاسيلى مرة لنيكيتا : « أى حساب مكتوب تريد أن أقدمه اليك ، وأنا اعطيك ما يتضح أنه من حقك . اننى لا أفعل ما يفعله بقية الناس ، اذ أترك الدائنين لى ينتظرون ، وأشغلهم بالحسابات المفصلة عما لى فى ذمتهم وعما لهم فى ذمتى .. ففى وسع كل منا — أنا وأنت — أن يثق فى الآخر .. ومادمت تحسن خدمتى ، فأننى لا أخذلك أبدا ! » .. وكان فاسيلى — فى قوله هذا — شديد الاعتقاد بأنه يقول الحق ، لأنه كان قديرا على الاقناع ، الى درجة تصل به الى ان يقتنع — هو نفسه — بأنه لا يخدع خدمه ، وانما يصنع معهم معروفا !

ولقد أجابه نيكيتا قائلا : « نعم . نعم . أننى أفهمك يا فاسيلى أندريتش .. أننى أفهمك تمام الفهم ، وسأخدمك واشتغل من أجلك ، كما لو كنت والدى » .. **بيد انه لم يكن غافلا أو جاهلا بأن فاسيلى كان يغشه ويستغله .. كل ما هنالك أنه كان يدرك ان لا فائدة ترجى من مطالبة مخدومه بحساب مفصل عما يستحق من أجر** .. وكان —

فى ذات الوقت ـ يعلم انه ما من مكان آخر يمكن ان يذهب اليه . ولذلك كان يفضل أن يتحمل حاله معـه على ما هى عليه ، وان يقنع بما يمكنه أن يحصل عليه منه .

***

فلما اصدر اليه الامر فى ذلك اليوم بأن يسرج الجواد ، أتجه فورا الى الحظيرة فى مرحه المعتاد ، وطبيعته الدمثة . وكان جوادا جميل الشكل ، متوسـط الحجم ، منخفض الكفل ، داكن السمرة .. وما ان شعر الجواد بمقـدم نيكيتا ، حتى استقبله بصهيل خافت ، عبر به عن تحيته .. فأقبل نيكيتا على تنظيفه ، ثم اسرجه . وما لبث ان قاده الى حيث كانت العربة ، فشده اليها . وارتقى سلم العربة ، وساق الجواد الى الخارج ، نحو مدخل الفناء .. وفى تلك اللحظة ، ارتفع خلفه صوت غلام صـفير يصيح : « ياعم نيكيت .. ياعم نيكيت ! » .

كان هذا ابن مخدومه .. غلام فى السابعة من عمـره ، شاحب اللون ، ضعيف البنية ، يرتدى سترة قصـيرة من الفرو الاسود ، وحذاءين أبيضين جديدين ، وقبعة أنيقة .. وقد أقبل مندفعا من داخل المنزل الى الفناء ، وراح يصرخ فى ضراعة الى نيكيتا وهو يجرى وراء العـربة ، قائلا له : « خذنى معك ! » . فأجابه بقوله : « حسنا ، حسـنا !.. تعال هنا ، اذن يا عزيزى ! » . وأخذ بيده ، وأجلسـه فى العربة ، وعيناه تتألقان بالفرح ، وخـرج به الى عرض الطريق .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، والجو كئيب عاصف ، ومقياس الحرارة يشير الى عشر درجات فقط فوق درجة التجمد ، وقد اكتست السماء بطبقة سوداء كثيفة من

السحب المنخفضة .. وكان المرء اذا ما خطا نحو الشارع خطوة واحدة ، يحس بالريح تغدو أشد قوة ، والصقيع يهوى فى كسف فيجتاح أسطح المبانى ، ويصفع وجوه السابلة . فما اسرع ما لوى نيكيتا عنان جواده وعاد بعربته الى الفناء . وما ان وقف بها عند مدخل البناء ، حتى خرج فاسيلى أندريتش ، ولفافة من التبغ بين شفتيه ، ومعطف من فرو الشاة فوق كتفيه ، وقد زره بأحكام ، ولفه عند خاصرته بحزام . واندفع بخطوات متسعة ، عنيفة الوقع فوق الثلج الذى راح ينسحق تحت صريف حذائيه المصنوعين من الجلد الكثيف المبطن باللباد . **حتى اذا ازدرد آخر الانفاس من لفافته ، القى عقبها وداسه ، ثم نظر الى العربة وهو ينفخ دخان التبغ خلال شاربيه . واذ رآها على أهبه الاستعداد الرحلة ، رفع ياقة معطفه وطوق بها عنقه ووجهه ، حتى لاصق فراؤها وجنتيه ..** واذ ذاك لمح ابنه الصغير جالسا فى مؤخر العربة ، فهتف قائلا له : « اذن ، فقد فعلتها أيها القرد الصغير ؟ »

وكان فاسيلى فى تلك اللحظة منتعشا مما جرعه من النبيذ مع ضيوفه . لذلك فقد كان أكثر استعدادا لأن يستشعر الرضى عن نفسه ، وعن كل ما فعله فى حياته . وقد أبهجه ـ فى تلك اللحظة ـ منظر ابنه الصغير الذى اعتزم ان يجعله وارثه ، فراح يرمقه فى ازدهاء عظيم .

وعلى عتبة الباب ، وراء فاسيلى ، وقفت زوجته النحيفة الشاحبة اللون « فاسيليا أندريتشا » ، وقد لفت رأسها وكتفيها بدثار من الصوف ، فلم يعد يبدو منها سوى عينيها . واذ خطت فى حذر خارج عتبة الباب ، قالت : « أليس من الافضل أن تأخذ نيكيتا معك ؟ » . فلم يجبها وانما زمجر مغضبا ، مستاء من كلماتها ، وبصق على

الارض .. وحينئذ استرسلت قائلة فى لهجة بادية القلق : « أنت ترى انك مسافر ومعك نقود .. فضلا عن ان حالة الجو تزداد سوءا . »، فانفجر فاسيلى قائلا لها ، وقد توترت شفتاه غيظا : « ألست أعرف الطريق ؟.. اذن ، فما حاجتى الى دليل آخذه معى ؟ »

وأجابتـــه زوجته ، وهى تدير المدثار لتحمى الجانب الآخر من وجهها : « خذه معك من اجل خاطر السماء .. أتوسل اليك ! » . فصاح فيها قائلا : « بالله لماذا تلاحقيننى هكذا ؟.. أين عساى أجد له مكانا فى العربة ؟ » . فقال نيكيتا فى مرح : « أنا مســـتعد لأن أذهب » .. فأجاب فاسيلى : « حســـنا .. احسب ان من الواجب أن أطيب خاطر السيدة .. ولكن عليك أن ترتدى ثوبا أفضل من هذا ، وأكثر دفئا .. لابد من سترة رسمية غير هـــذه ! » .. وابتسم وهو يغمز بعينه نحو سترة نيكيتا الفرائية ، التى كانت - فى الحق - مهلهلة تتخللها فجوات عند ابطيها وعلى ظهرها وحول جانبيها ، فضلا عن أنها كانت ملوثة بالشحم ، متلبدة ، ممزقة الاطراف .

***

واذ انطلق نيكيتا ليستبدل ثيـــابه ، تبعه فاسيلى بقوله : « لا تتأخر طويلا فى ارتداء بدلتك الرســـمية الجديدة من فضلك ! » .. فمضى نيكيتا وثبا فى حذائيـــه العتيقين الى جناح الخدم ، الواقع فى نهاية الفنـــاء .. ثم اندفـــع الى داخل الكوخ صائحا : « يا عزيزتى أرينشكا ، اعطينى بدلتى من الصيوان ، فاننى ذاهب مع السيد ! » . وانتزع حزامه الذى كان معلقا على وتد بالحائط .. وكانت الطاهية - فى تلك اللحظة - تعد الشاى لزوجها بعـــد ان نعمت بقيلولة

هانئة .. فلما سمعت صوت « نيكيتا » بادرته بالتحية فى بشاشة . واذ سرت اليها عدوى تسرعه وعجلتـــــه ، بدأت تجرى هنا وهناك فى نشاط وخفة وضوضاء ، كما كان هــو يفعل . وأخذت من الصيوان بدلة قديمة ، حائلة اللون ، وان لم يكن بحالها بأس . وراحت تنفض الغبار عنها وتنظفها .. وبينذاك ، راح نيكيتا يقول لها : « أنت أنسب منى للذهاب مع السيد ! » .. ولم يكن يعنى ما يقول ، وانما كان ذلك جريا على عادته أن يقول شيئا حسنا لكل من يصادفه .. ثم راح يلف الحزام حول وسطه ويضغط عليه ضغطا عنيفا ليحبك أطرافه ، وانطلق يقول له : « أنت ياهذا !.. لا ينبغى لك أن تنفلت الى الخارج هكذا ! » .. **حتى اذا اطمأن الى حسن هيئته ، التقط أخيرا قفازيه من احد الارفف وقال : « أنا مستعد الآن ! » . فصاحت الطاهية قائلـــة : « ولكنك نسيت قدميك ، فأن هذا الحذاء بشع » .**

فوقف نيكيتا وكأنه بوغت بهذا ، وقال : « نعم » . الا انه ما لبث ان أتى حركة تدل على أنه غير فكره ، وقال : « كلا . فلســـوف يذهب بدونى ، لو اننى فعلت ذلك . وعلى أية حال ، فلن اكون بحاجة لأن أمشى طويلا » . ثم انطلق مسرعا الى الفناء .. فما رأته سيدته ــ حين وصل الى العربة ــ حتى بادرته قائلة : « ولكن ، ألن يصيبك البرد بهذه البذلة الخفيفة يا نيكيتا ؟ » . فأجابها : « كلا بالتأكيـــد ، كيف يصيبنى البرد ، والجو دافىء جدا ! » .. ثم راح يســـوى القش فى مقدمة العربة بطريقة تسمح بأن يدس فيه قدميه .

وجلس « فاسيلى » فى مقعده ، فملأ بظهره العريض ــ ذى الدثارين من الفرو ــ مؤخر العربة كله ، ثم قبض على عنان الجواد وجذبه به .. فى حين قفز « نيكيتا » الى مقدم العربة ، فى اللحظة التى بدأت فيها تنطلق ، وجلس منحنيا

الى الامام بميل الى اليسار ، وهو يعتمد فى جلسته على قدم واحدة .

- ٢ -

• واندفع الجواد الوديع يجر العربة وهو يصدر صريفا خفيفا حين يخب فى منحن على الطـــــريق المعبد المغطى بالصقيع . وفجأة صاح فاســـيلى : « ويحك ! لماذا قفزت يا هذا ؟ » .. فقد لمح أحد المارة يحاول أن يدفع بنفســه امام الجواد فى الاتجاه الخاطىء بالنسبة للمشاة . وصاح : « أعطنى السوط يا نيكيتا ! » .. فقفز العابر بعيـــدا عن طريقه .. بينما أسرع الجواد كل الاسراع .. الا انه ما لبث أن عاد الى الخبب مرة أخرى .

وكانت (كريستى) - قرية فاسيلى - دسكرة صغيرة ، لا تضم اكثر من ستة منازل . فما وصلت العربة امام كوخ الحداد فى نهايتها ، حتى أدرك الراكبان أن الريح أقوى مما كانا يتوقعان ، وان الثلج أشد تراكما فى الطريق من المألوف ، حتى لقد أصبح سطحه أعلى قليلا من مستوى الارض التى على جانبيه ، وان أبرزه ذلك للعين .. وكان الثـــلج يدور كالدوامة فى الوادى كله ، وتتسع دائرته حتى يمتد قطرها الى الافق البعيد ؛ فى حين أن غابة (تلياتنسكى) - التى كان من الممكن فى العادة رؤيتها كلها - لم تعد تبدو اكثـــر من كتلة من الظلمة ملتفة بالثلوج . وكانت الـــريح تهب من اليسار فتطيح بناصية الجواد الى الناحية الاخـــرى من عنقه ، وتدفع بذيله الطويل الذؤابة نحو خاصرته .

أما نيكيتا ، فاذ صفعته الريح - وهو جالس فى الجانب المعرض لها من العربة - راح يرفع ياقة بذلته ضاغطا اياها حول وجنتيه وأنفه .. وما لبث فاســـيلى ان قال : « ان

الجواد لا يستطيع السير طويلا اليوم ، فان الثلج شديد التراكم على الارض » . ثم استرسل قائلا وهو يفخر بجواده : « لقد قدته ذات مرة الى (باسيتينو) فى نصف ساعة » .

فقال نيكيتا وقد منعته ياقته العالية من سماع ما قال سيده : « ماذا تقول ؟ » . فصاح فاسيلى رافعا صوته : « أقول اننى قدته الى باستيتينو فى نصف ساعة » . وقال نيكيتا : « انه لأمر يستحق الفخر بالتأكيد .. وانه لجواد بديع ! »

ثم صمتا برهة .. الا ان فاسيلى كان ميالا الى الثرثرة ، فما لبث أن قال صائحا : « ما رأيك ؟.. لقد قلت لزوجتك فى ذلك اليوم ، الا تدع صانع البراميل يشرب الشاى كله » .. وكان موقنا بأن نيكيتا سيشعر بالزهو اذ يوجه اليه الحديث من ذى حيثية مثله ، كما هزه الطرب جدا بمزحته عن صانع البراميل ، غير مدرك أن هذا الأمر لم يكن ذا أهمية عند نيكيتا .. على أن هذا الأخير ، لم يسمع كلمة واحدة مما قال سيده — فى الواقع — بسبب عنف الريح .. فما كان من فاسيلى الا أن كرر مزحته بأعلى صوته . فلما فهم نيكيتا مقصده ، أجاب : **« كان الله فى عونها ، يا فاسيلى أندريتش !.. اننى لا أتدخل فى أى شأن من شؤونها .. فقد أتاحت لى بمسلكها سبيلا الى لومها . ولكنها مادامت تحسن معاملة الولد ، فلن أقول الا .. كان الله فى عونها ! »**

اذ ذاك قال فاسيلى محولا مجرى الحديث : « هل أنت مزمع أن تشترى جوادا فى الربيع ؟ » . فأعاد نيكيتا ياقته الى الخلف قليلا ، ومال ناحية مخدومه ، وقد سره موضوع الحديث الجديد ، فأراد أن يستوعب كل كلمة منه . وأجاب قائلا : « اننى لأرجو أن يكون فى امكانى ذلك .. فان ابنى

الصغير يكبر سريعا ، ويجب أن يتعلم الحرث والفلاحة . الا أننى بددت كل مالى » . فقال فاسيلى : « لو أنك أخذت جوادى الصغير المنخفض الكفل ، فلن أطلب فى مقابله ثمنا فادحا » .

وكان فاسيلى وهو يقول ذلك مرحا ، رائق المزاج ، وقد عاودته غريزته الغالبة التى تستغرق كل ملكاته .. وهى غريزة المساومة وملاحقة الصفقات . فأجابه نيكيتا : **« أفضل أن تقرضنى خمسة عشر روبلا ، وتدعنى أذهب وأشترى واحدا من سوق الخيل ! »**

قال ذلك اذ كان عالما كل العلم أن الجواد الصغير المنخفض الكفل - الذى كان يعنيه فاسيلى - لم يكن يساوى فى السوق أكثر من سبعة روبلات ، فى حين أن فاسيلى لن يعطيه اياه حتى يقسم أنه يساوى على الأقل خمسة وعشرين روبلا ، ثم يحتجز لذلك نصف أجره فى عام كامل ، حتى يستوفى ثمن جواده .. ولكن فاسيلى استرسل فى لهجته المتحذلقة المنمقة : « انه لجواد رائع ، وأريد أن أؤدى لك خدمة ، وأرعى مصلحتك كما أرعى مصلحة نفسى .. فيشرفنى أن بريخانوف لايمكن أن يغش أحدا ، وانى لأفضل الأفلاس على أن أفعل ذلك .. نعم . بشرفى انه لجواد رائع » . فقال نيكيتا وهو يزفر : « اننى لمتأكد من هذا » .

***

واذ وجد من العبث أن يحاول الانصات أكثر من ذلك ، طوى ياقته مرة أخرى ، وغطى وجهه وأذنيه .. وخيم السكون بينهما - بعد ذلك - نصف ساعة كاملة ، راحت

قفازيه ، فلم يسعه الا أن أحنى ظهره ، وغطى فمه بياقة سترته ، اتقاء لأذى البرد القارس ، الذى كان يصفعه فى شدة وعنف .

على أن فاسيلى ما لبث أن سأل نيكيتا : « ما رأيك ، أتذهب عن طريق كاراميشيفو ام نسلك الطريق المباشر ؟ » .. وكان الذهاب عن طريق (كاراميشيفو) هو الأبعد والأوعر ، الا انه كان عامرا بالعلامات المنصوبة الدالة على الاتجاه . **أما الطريق المباشر ، فمع انه كان أقصر جدا من الأول ، الا أنه كان خاليا من العلامات ، ومن ثم لم يكن مطروقا أو مستحبا من أغلب المسافرين** . ولذلك فقد فكر نيكيتا بعض الوقت ثم قال أخيرا : « ان طريق كاراميشيفو أطول ، ولكن السير فيه أيسر وأسهل » .

وقال فاسيلى ، وقد كان يميل الى الطريق الأقصر : « ومع ذلك ، فلو اننا ذهبنا فى الطريق المباشر ، فما علينا حينئذ الا أن نبلغ المنحنى ، ثم ننطلق بعد ذلك بلا خوف .. ولسوف يكون رائعا أن نسير خلال الغابة » . فقال نيكيتا : « كما تريد ! » . ثم طوى ياقته مرة أخرى .

وعلى ذلك ، سار فاسيلى فى الطريق الذى أراده .. حتى اذا قطع منها نحو نصف فرسخ ، استدار الى اليسار حيث كانت تنتصب سنديانة صغيرة العمر سامقة الجذع ، تحطمت فروعها وانسحقت أوراقها الذابلة - التى كانت لاتزال عالقة بها - تحت وطأة الريح المجنونة التى راحت فى ارتدادها تلطم أوجه المسافرين ، وقد بدأ يتساقط الصقيع . فما كان من فاسيلى الا أن أرخى العنان لجواده ، ونفخ أوداجه ، ثم ترك الأنفاس تخرج لاهثة من تحت شاربه .. فى حين كان نيكيتا قد أسلم نفسه لسنة من النوم .. وهكذا انطلقت بهما العربة فى صمت وسكون . الا أن فاسيلى ما

لبث - بعد نحو عشر دقائق - أن صاح منزعجا .. فانتفض نيكيتا فاتحا عينيه ، وهو يهتف قائلا : « ماذا هناك ؟ » .

ولم يجبه فاسيلى ، وانما استدار لينظر خلفه ، ثم عاد يتطلع أمامه .. وكان الجواد يخب فى سيره والعرق يتصاعد متبخرا من جانبيه .. فعاد نيكيتا يسأل مرة أخرى : « ماذا هناك ؟ » .. فصاح فاسيلى فى حنق ، وهو يقلد صوت خادمه قائلا : « ماذا هناك ؟.. ليس هناك الا اننى لا أتمكن من رؤية أية علامات الآن . ولابد أننا حدنا عن الطريق » . فقال نيكيتا : « انتظر لحظة اذن حتى أذهب وأرى » ..

وقفز بخفة من العربة ، وهو يسحب السوط من تحت القش . وسار أولا نحو الامام ، ثم اتجه الى اليسار .. الا أن الثلج كان بعيد الغور ، حتى أن قدما نيكيتا راحتا تغوصان فيه الى الركبتين .. ومع أنه ظل يتحايل على السير ، وهو يتكىء على مؤخر السوط ، فقد فشل فى أن يجد مواطىء لقدميه .. واختفت معالم الطريق ، فما وسعه الا أن استدار راجعا .. وما ان لمحه فاسيلى ، حتى هتف متسائلا : « ماذا رأيت ؟ » .. فأجابه قائلا : « لا طريق فى هذا الجانب . فلأحاول الجانب الآخر ! » . فقال فاسيلى : « هناك شىء أسود يبدو أمامنا ، فاذهب وأنظر ما هو ! »

وذهب نيكيتا الى حيث أشار اليه .. الا أنه اتبين الا شىء هناك سوى رقعة من الأرض السوداء تهتز فيها بعض أعواد قمح الشتاء .. فاستدار عائدا الى العربة مرة أخرى ، واعتلى مقعده وهو ينفض الثلج عن ردائه وحذائيه .. ثم قال فى حزم : « يجب أن نتجه يمينا ، فقد كانت الريح الى يسارنا منذ لحظة ، ولكنها الآن تهب رأسا فى وجوهنا » .. ثم ختم قوله فى لهجة الواثق المصمم : « نعم .. يجب أن

نتجه الى اليمين ! » .. وبعناء سمع فاسيلى قوله ، ثم لوى رأس الجواد فى الاتجاه الذى أشار اليه .. ومع ذلك فقد سارا شوطا بعيدا ، وما من طريق ظهر أمامهما .. اذ طمست الريح كل علامة يمكن السير على هداها ، وقد ازداد انهمار الثلج فغطى الغابة كلها ..

وفجأة صاح نيكيتا : « حسنا .. لقد ضللنا الآن تماما ، يا فاسيلى أندريتش » .. الا انه ما لبث أن صاح مرة أخرى : « ولكن ما هذا ؟ » . وراح يشير الى شىء بدا مرتفعا فوق رقعة الثلج ، فأوقف فاسيلى — فى الحال — جواده الذى أصبح الآن ينضح بالعرق ، ويحرك فى صعوبة جنبيه البدينين ، قائلا : « نعم . ما هذا ؟ » . فأجاب نيكيتا : « ان معناه اننا فى أملاك زاخاروفيتش .. واذن ، فهنا قد وصلنا » . ولكن فاسيلى قال : « كلا ، بالتأكيد » . فقال نيكيتا فى اصرار : « بل كما أقول .. ويمكنك أن تدرك هذا من صوت العجلات ، فانها تدرج فوق حقل من حقول البطاطس .. أنظر الى براعم البطاطس النابتة فى جذورها!.. أجل ، هذه هى مزارع زاخاروفيتش » .

وقال فاسيلى : « حسنا ، فماذا نفعل الآن ؟ » . فأجاب نيكيتا قائلا : « يجب أن نواصل السير ناحية اليمين ، ولسوف نصل بالتأكيد الى مكان أو الى آخر . فاذا كنا لم نصادف زاخاروفيتش ، فلن نلبث أن نصل الى مزرعة أحد المستأجرين » .

***

ووافقه فاسيلى ، فقاد الجواد فى الاتجاه الذى أشار اليه نيكيتا .. حتى بلغ بالعربة دغلا من الحشائش المنبسطة فوق رقعة خشنة من الأرض التى جمدها الصقيع .. ثم

اذا بالعربة تدلف مرة أخرى فوق حقل من خذامة الحنطة التى تنمو فى الشتاء وبواكير الربيع ، خلال العشب الذابل وعيدان القش المنتصبة فوق ركام الثلج ، وهى ترتعد مذعورة فى مهب الريح .. وقد اشتد انهمار الصقيع ، وبلغ الارهاق بالجواد مبلغا شنيعا ، فابيض جنباه ، وراحت أبخرة العرق تتصاعد من كل بدنه ، وهو يلتقط أنفاسه فى لهاث متقطع ، ولا يكاد يقوى بعد على نقل أقدامه .. **ثم ما لبث فجأة أن تعثر وكبا ، ثم غاص فى حفرة أمامه ، وحينئذ راح فاسيلى يستنهضه .. الا أن نيكيتا قفز فى هذه اللحظة صائحا : « لماذا نقف هكذا ؟ هيا !.. فلنرفعه من سقطته ! » ..**

وقفز من العربة ، واتجه نحو الجواد يربته فى تشجيع وحنان ، قائلا له : « يا عزيزى ، يا حبيبى ! » .. واستدار الى العربة ، وراح يدفعها محاولا أن يخرجها من الحفرة بذراعيه .. فى هذه الأثناء ، تمكن الجواد من النهوض بنفسه ، ثم راح يزحف الى الخلف الى أن بلغ نهاية الحفرة التى كان من الواضح أنها محفورة بيد انسان .. وحينئذ سأل فاسيلى قائلا : « أين نحن الآن ؟ » . فقال نيكيتا : « يجب أن نعرف ذلك .. فلنتقدم قليلا ، ولسوف نصل الى مكان ما .. »

وهنا أشار سيده الى شىء أسود يلوح خلال الثلج أمامهم ، وقال متسائلا : « أليست تلك غابة جوفيا تشكنسكى ؟ » . فأجابه نيكيتا قائلا : « قد يكون ذلك .. فهلم ننظر ما هنالك » .

وفعلا ، كان ما رآه رقعة من الارض ترفرف خلالها أوراق العنب الذابلة ، مما يدل على أن المكان لم يكن غابة موحشة ، وانما موضعا للسكنى . ومع ذلك ، فقد تردد كل منهما فى

الكلام ، الى أن تم تأكده من ذلك . اذ لم يكادا يتقدمان عشرين قصبة - بعد الحفرة التى كان الجواد قد تردى فيها - حتى لاحت الحقيقة فى وضوح أمامهما ، وقد صدق حدس نيكيتا ، فلم تكن تلك التى وصلا اليها غابة ، وانما عريش متشابك الفروع من الاعناب التى ما زالت تعلق بها بضع أوراق ذابلة ترتجف على عساليجها ، فيرتفع لها حفيف كفحيح الافاعى تحت وقع الريح التى كانت تئز خلالها وتنوح . **وهنا ، رفع الجواد فجاة قدميه الاماميتين ، ثم جذب مؤخرته فى أثرهما ، وما لبث بعد ذلك أن استدار الى اليسار فى سهولة واضحة ، وراح يخب مرة أخرى فى الثلج الذى بلغ ركبتيه .. واذن فقد كانت تلك هى الطريق من جديد ..**

فصاح نيكيتا قائلا : « أخيرا .. ها نحن قد بلغناها ! ولكن الله وحده يعلم أين اتجاهها » .

أما الجواد ، فلم يتردد ، وانما انطلق رأسا فى الطريق المغطى بالثلج . حتى اذا قطع نحو مائة قصبة ، ارتفعت - أمام الراكبين - حوائط مخزن غلال غائص فى تلال الصقيع الذى كان يتراكم على سقفه كقطع السحاب .. فلما اجتازت العربة هذا البناء ، ابتدأ الطريق يلتف قليلا الى ناحية اتجاه الريح ، ثم اذا بشارع قصير يبدو بين بنايتين .. ووضح - بما لا مجال للشك فيه - أنه شارع قرية من القرى .. وفى أقرب فناء من أفنية منازله ، بدا حبل مشدود ، يحمل صفا طويلا من الملابس المنشورة ، وهى ترتجف وتتطاير فى ذعر وحيرة أمام لطمات الريح .. وقد تميز منه خلال الضوء الخافت قميصان أحدهما ناصع البياض والآخر أحمر اللون ، وسروالان ، وغلالة امرأة .. وكان القميص الابيض يلوح بذراعيه المتدليين فى استغاثة وجنون .

- ٣ -

• **كانت** الريح فى أعنف شدتهـــا عند مدخل الشارع ، والثلج ينهمر على أرضه انهمارا لا هوادة فيـــــه .. الا ان العربة ما دلفت الى الساحة التى تتوسط القرية ، حتى بدا كل شىء هادئا ودافئا وبهيجا .. واقبل من أحد الافنيـــة كلب يعدو ويعوى ، كما أقبلت — من فنـــاء آخر — امرأة عجوز ، تهرول وقد لفت رأسها بمنـــديل ، وراحت تتطلع نحو القادمين . ومن وسط القرية جاء صوت فتيات فى أحد المنازل تمرحن وتغنين .. فقال فاسيلى : « لا بد أن هذه هى جريشكينو » .

وفعلا .. كانت تلك هى (جريشكينو) .. وبذلك وضح لهما انهما انما تركا الطريق الى يمينهما ، وسارا نحو ثمانية فراسخ مبتعدين بزاوية عن الاتجاه الصحيح .. وما لبثا أن أبصرا رجلا طويل القامة ، يبرز فى عرض الطريق صـــائحا : « من أنت يا هذا ؟ » . فلما وقعت عينه على فاسيلى ، تقدم نحو العربة ، وانحنى مزكما أنف نيكيتا برائحـــة الفودكا ، قائلا لفاســـيلى : « الى أين يأخذك الله فى هـــذه الساعة يا فاسيلى أندريتش ؟ » .. وحينئذ تبين لهذا انه أحـــد أصدقائه ويدعى « ايزاى » ، وكان معروفا بأنه أسوأ سارقى الخيل فى المنطقة كلها . فأجابه : « لقد كنا نحاول أن نصل الى جوفيا تشگينا » .

فقال مستعجبا : « أى طريق ذلك الذى اتخذتماه اذن ؟ »

فغمغم فاسيلى وهو يدفع بالجـــواد قائلا : « ما جدوى الكلام ؟ » .. وعندئذ نظر ايزاى فى خبث الى الجواد ، ومر بيده على كفله قائلا : «هل ستقضيان الليل هنا ؟» . فأجابه « كلا يا صديقى . سنواصل الرحيل حالاً » .

وقال ايزاى : « أرى أن من الافضل أن تبقيا ، ولكن من هذا ؟.. يا لله أليس هذا هو نيكيتا ستيفانتش !» . فأجاب نيكيتا : « نعم . ليس غيره .. ولكن ، أرجوك أن تخبرنا أيها الاخ ، كيف نتجنب أن نضل طريقنا مرة أخرى ؟ » . فأجابه قائلا : « كيف تتجنبان أن تضلا طريقكما مرة أخرى ؟.. سيرا على طول الطريق ، ولا تحيدا الى اليسار ، وانما استمرا حتى تصلا الى قرب قرية كبيرة ، فانحنيا نحو اليمين » .

وقال نيكيتا : « ولكن أين المنحنى بقرب تلك القرية ؟.. أهو طريق الصيف أم طريق الشتاء ؟ » .. فأجابه قائلا : « طريق الشتاء ، ولسوف تجدان هنالك سنديانة عتيقة فارعة الطول .. فاذا وصلتما اليها فعندها تحيدان » .

***

وفى الحال أدار فاسيلى رأس الجواد ليعود به الى الطريق مرة أخرى .. وبدا ان الثلج قد كف عن الانهمار ، والريح قد فترت .. ولكنهما لم يكادا يبلغان الخلاء ، حتى اكتشفا أن العاصفة لم تكن قد خفت ، كما توهما ، وانما ـ على العكس ـ اشتدت وازدادت عنفا .. ولولا العلامات القائمة على جانبى الطريق ، لراحا يتخبطان فى الغابة مرة اخرى .. بل ان هذه العلامات ذاتها لم تلبث أن تعذر تبينها ، اذ بدأت الريح تطمس معالمها .

وقطب فاسيلى حاجبيه ، وهو ينحنى الى الامام كى يتبين مكان العلامات .. الا أنه ـ مع عجزه عن ذلك ـ أطلق العنان لجواده أكثر من ذى قبل ، واثقا من فطنته .. انطلق الجواد حائدا ناحية اليسار أوناحية اليمين حسب انعطافات الطريق ، وهو يتحسسها بحوافره ، ولا يخطئها .. ملتزما

العلامات التى بقيت واضحة على الرغم من اشتداد الريح وانهمار الثلوج .. وظل منطلقا على هذا النحو ، حتى حدث بعد حوالى عشر دقائق أن لاح فجأة أمامه شىء أسـود يضطرب فى دوامة هائلة من الثلج الذى تدفعه الـريح .. **وسرعان ما ظهر هذا الشىء معترضا طريق الجـواد ، وقد ارتطمت به قدماه الاماميتان ، فاذا هو عـربة تحمل جماعة من المسافرين ، وقد انبعثت عنهم صيحات مختلطة تصرخ فى صخب : « خـذ حذرك يا هـذا ! أنظـر أمامك ! » ..** وسارع فاسيلى ، فحاد بالجواد عن طريقه . وحينئذ تبين أن بالعربة ثلاثة فلاحين من « المازيك » ، وامرأة عجـوز . وكان واضحا أنهم ضيوف عائدون بعد أن قضوا أيام العيد فى احدى القرى .. فلما حاذاهم فاسيلى بعربته ، سـألهم صائحا : « من أى بلد أنتم ؟ » . ولكنه لم يسـتطع تمييز اجابتهم .. بيد انه سمع احدهم يصيح الى زميـل له كان يهوى بالغصن على الجواد قائلا له : «اعترض طريقهما !» . ومرة اخرى ، صاح فاسيلى : « أظنكم عائدين بعد قضـاء فترة العيد ؟ » . ولكنه لم يسمع الا واحدا منهم يصرخ فى زميله : **« انهما يسبقاننا !.. أعترضهما يا سيمكا ! »**

وهكذا ظلت العربتان تتسابقان .. تبطئان ، ثم تسرعان .. وتقفان ، ثم تنطلقان ، حتى بدات عربة الفلاحين أخـيرا تهن وتتداعى ، وبدأ جوادهم الضامر الصغير ينوء بحمله ، وهو يحاول عبثا أن يروغ من ضربات الغصـن الذى كان يهوى على جنباته ، فراح يتخبط فى تلال الثلج التى كانت تغوص فيها أقدامه ، وانفاسه تنطلق لاهثة من فتحات انفه المنتفخة ، وأذناه منتصبتان ، مشـدودتان الى الخلف من فرط الارهاق والفزع .. فصـاح تيكيتا قائلا : « انهم لسكارى ، وهذا ما تفعله الخمر بالناس ! »

وسرعان ما خارت قوة الجواد المكروب ، ووهنت خطواته فتخلف بعربته .. وظل تهدج أنفاسه يتردد بضع دقائق ، كما اخذت صيحات الفلاحين وهى تغيب شيئا فشيئا ، حتى طواها أخيرا صوت العاصفة .. ولم يعد يمكن سماع شىء سوى صفير الريح ، وصرير العجلات وهى تقرقع فوق ارض الطريق .

***

والواقع أن هذا السباق مع العربة الاخرى أبهج فاسيلى وانعشه ، حتى لقد قاد الجواد ممتلىء النفس بثقة لم تكن له فى يوم من الايام .. وترك الامر كله لفطنة الجـــواد الاريب ، دون أن يهتم بمراقبة علامات الطريق . أما نيكيتا ، فقد أسلم نفسه – كعـادته – لاغفـــاءة .. الا أن الجواد ما لبث ان وقف وقفة عنيفة مفاجئـة ، حتى كاد ان يلقى نيكيتا من مقعده فوق العـــربة .. **وحينئذ صاح فاسيلى قائلا : « لقد أخطأنا الطريق مرة أخـــرى » . فقال نيكيتا منتفضا : « كيف عرفت ذلك ؟ » . وكان جوابه : « لم تعد ثمة علامات ترى ! »**

وقال نيكيتا فى اقتضاب : « حسنا . مادمنا قد فقدناها ، فلأبحث عنها مرة أخـــرى ! » .. ثم غادر العربة ، وراح يشق طريقه بين الثلوج ، وهو يقفز قفـزا على عقبى قدميه .. وظل يفعل ذلك وقتا طويلا ، فــكان يختفى حينا ، ثم يظهر مرة اخرى .. وأخيرا ارتد فى يأس ، واعتلى مقعــده على العربة قائلا : « ليس هنالك طريق .. فلنتقدم بالعربة فلا بد انه امامنـــا . » .. وكان الظلام قد اشتد ، فقـال فاسيلى متأوها : « ليت فى أمكاننا أن نســـمع اولئك الفلاحين ! » . فقال نيكيتا : « لن يلحقوا بنا ، فقد تخلفوا

عنا مسافة طويلة » .. وسـكت هنيهة ثم أضاف قائلا : « لعلهم فعلوا مثلنا ! »

وقال فاسيلى متسائلا : « ولكن .. فى أى طريق نحن ؟ » .. فأجابه نيكيتا فى لهجة الناصح : « أترك الامر للجواد ، فلعله يتخذ الطريق الصحيح ! » .. ثم مد يده قائلا : « أعطنى العنان » . ولكن فاسيلى لم يناوله أياه .. ربما لأن يديه — على الأقل — كانتا نصف متجمدتين فى قفازيهما . فأخذ نيكيتا اللجام ، ولكنه تركه مرسلا فى أصابعه ، غير محاول أن يشد عليه ، وقد اطربه — فى الواقـع — ان يختبر ذكاء جواده المحبوب .. وقد كان على حق ، فأن الحيوان النابه ما لبث أن نصب أذنيه ناحية اليمين ، ثم نصبهما ناحيـة اليسار ، ثم اذا به يستدير ويعود أدراجه .

وصاح نيكيتا فى زهو وظفر قائلا : « أنه ليعرف جيـدا ما ينبغى أن يفعل !.. فانطلق يا صديقى ! انطلق ونحـن معك ! » .. واصبحت الريح فى ظهرهما مرة أخرى ، وقد بدا لهما الجو أكثر دفئا .. واستمر نيكيتا فى زهوه بالجواد ، قائلا : « انظر ماذا يفعل بأذنيه وحدهما !.. انه يستطيع أن يشم بهما رائحة الطريق على بعد فرسـخ ! » . وفعلا ، لم ينقض نصف الساعة ، حتى بدا يلوح أمامهما على البعـد شىء أسود كالغابة أو القرية .. كما بدأت علامات الطـريق تظهر عن يمينهما . فتساءل نيكيتا فجـأة : « أليست تلك هى جريشكينو مرة أخرى ؟ » .

ولقد كانت حقا هى (جريشكينو) ، وقد بدا عن يسارهم المخزن والثلج متراكم على سطحه ، وعلى مسافة منـه بدا مرة أخرى حبل الملابس المحمل بالقمصـان والسراويل .. وكانت ما تزال ترفرف وترتجف امام لطمات !.. وللمـرة الثانية ، راحا يدلفان الى شـارع القرية ، وقد أخذ كل شىء

يبدو لهما فى داخلها هادئا ودافئا وبهيجا ، وبدأ سمعهما يلتقط أصوات المرح والغناء المنبعثة من المنازل ، وراح الكلب ينبح كما فعل فى المرة السالفة .. واذ كان ظلام الليل قد اشتد عن ذى قبل ، فقد اصبحت الانوار اكثر تألقا فى احدى النوافذ .. وأدار فاسيلى رأس الجواد ناحية كوخ كبير ذى طابقين من القرميد ، وأوقف العربة عند عتبته .. واقترب نيكيتا من النافذة المضيئة ، المجللة بالثلج المتألق فى وهج النور ، ودق لوح الزجاج بمؤخر سوطه ، فصاح صوت من الداخل ، قائلا : « من هناك ؟ »

واجاب نيكيتا قائلا : « انه السيد بريخانوف ، من كريستى ، أيها الأخ .. أرجوك أن تسمح لنا بالدخول » .. وسمعا حركة شخص يبتعد عن النافذة ، ثم — بعد نحو دقيقتين — صوت الباب الداخلى وهو يفتح ، وصريف مزلاج الباب الخارجى . وما انفرج قليلا ، حتى ظهر فلاح شيخ ، فارع الطول ، ذو لحية بيضاء ، أمسك بالباب نصف مغلق خلفه — كى يمنع الريح من أن تتسرب الى داخل الكوخ — وقد ألقى على كتفيه معطفا من الفراء ، فوق جلباب أبيض مما يرتدى داخل البيت .. ووراءه شاب يافع فى قميص أحمر وحذاءين طويلين ..

ولم يكد الشيخ يراهما ، حتى بادر قائلا : « كيف حالك يا أندريتش ؟ » . فأجابه فاسيلى : « لقد ضللنا الطريق يا صديقى .. كنا نحاول الذهاب الى جوفياتشكينا ، فوصلت بنا العربة الى هنا .. ثم واصلنا المسير ، ولكنا ضللنا الطريق مرة أخرى » . فقال الشيخ : « ولكن ، كيف حدث أن سرتما فى اتجاه خاطىء ؟ » .. ثم وجه كلامه الى الشاب ذى القميص الاحمر ، قائلا : « اذهب يا بيتروشكا وافتح باب الفناء » .

واذ انطلق الشاب فى مرح ليفعل ذلك ، صـــاح فاسيلى قائلا : « كلا . كلا . لن نقضى الليل هنا » . فأجابه الشيخ متسائلا : « ولكن أين يمكنكما ان تذهبا الآن ؟.. لقد خيم الظلام ، ومن الافضل لكما البقاء » . فقال فاسيلى فى لهجة المتعجل : « كان يسرنى كل السرور أن أفعل ذلك ، ولـكنى لا استطيع ، فأنت تعرف ان العمل لا ينتظر » .

وقال الشيخ : « لاأقل اذن من أن تدخلا فتستدفئا ببعض الشاى » . فأجابه فاسيلى قائلا : « نعم . ربما نفعل ذلك .. فأن الليل لن يغدو – على أى حال – أشد ظلاما مما هو الآن ، ولسوف يظهر القمر بعد قليل .. هل ندخل وندفىء انفســنا ببعض الشىء يانيكيتا ؟ » . فقال نيكيتا وقد كان يرتجف من البرد : « نعم ! »

***

ودخل فاسيلى الى الكوخ فى صحبةالشيخ ، فى حين دفع نيكيتا العربة الي داخل الفناء ، بعد ان فتح بتروشـــكا له الباب . ثم ساق الجواد وأوقفه تحت مظلة هناك ، فما دلف به حتى ارتفع صـوت ديك ودجاجات كانت جاثمة فى أحد الاركان ، وقد راحت ترفرف بأجنحتها ، وتصرخ وتقفز هنا وهناك ضاربة الداخلين بمخالبها ، واندفعت بعض الاغنـام فى فزع وهى تدق بحوافرها الروث المغطى بالثـلج ، وراح كلب يزوم ويزمجر فى غضب . ثم لم يلبث أن انطلق يعوى فى وجه القادمين المتطفلين .. فالتفت نيكيتا حـوله يتأمل هذه الثـورة التى أثارها قدومه ، وقال كلمة لكل من هؤلاء الثائرين يهدىء بها خواطرهم .. ثم التفت أخيرا الـكلب ، وهو يقول ملوحا بيديه : « هاقد انتهينا الآن ، فاســكت يا مجنون !.. أسكت ولا ترعج نفسك هكذا بغير موجب .. لسنا لصوصا ! »

فقال بتروشكا وهو يدفع العربة تحت المظلة بيديه القويتين : « أتهم مستشارونا الثلاثة اليقظون ؟ » ..
فقال نيكيتا متسائلا : « مستشاروكم الثلاثة ؟ » . فأجابه وهو يبتسم : « نعم ، فانك تجده مكتوبا فى كتاب «بولسون». « حينما لص يتسلل الى المنزل .. الكلب يعوى قائلا بلغته الخاصة : اصحوا !.. والديك يصيح قائلا : قوموا !.. أما القطة فأنها تروح تنظف وجهها ، كأنما تقول : ثمة ضيف مقبل ، فلنستعد للقائه ! »

وقد كان بتروشكا ذا نزعة ادبية ، وكان يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب الوحيد الذى يمتلكه ، وهو أحد مؤلفات « بولسون » .. فقال : « هذا حق صراح » . وقال بتروشكا : « ولكنى أراك متجمدا من البرد .. فتعال الآن الى الداخل كى تصيب بعض الشاى » .. ثم عبرا الفناء ، ودلفا الى داخل الكوخ .

- ٤ -

• **كانت** العائلة التى لجأ فاسيلى وخادمه الى منزلها ، من أغنى عائلات القرية .. اذ كانت تمتلك ما لا يقل عن خمسة أفدنة من الارض ، وتستأجر قدرا آخر يدر عليها ريعا سخيا . وكانت حظائرها تشتمل على خمسة خيول ، وخمسة ثيران ، وثلاثة أبقار ، وقطيع من عشرين رأس غنم .. وكان المنزل يضم بين جدرانه اثنين وعشرين نفسا .. أربعة أبناء متزوجون ، وستة أحفاد - كان أحدهم وهو بتروشكا متزوجا - واثنان من ابناء الاحفاد ، وثلاث يتامى ، واربع من زوجات الابناء مع أطفالهن .. فضلا عن ولدين كانا يعملان فى موسكو ، وثالث كان فى الجيش .. الا انه لم يكن بالمنزل - فى تلك الساعة - غير الشيخ وزوجته ،

والابن الثانى صاحب الاولاد المتزوجين ، وأكبر الولدين اللذين كانا يعملان فى موسكو ـ وقد جاء فى العيـــد ـ والزوجات والاولاد العديدين وأحد الجيران الثرثارين .

تلك كانت احـــدى العائلات النادرة ، التى ظلت تعيش متجمعة فى بيت واحد ، برغم ما كان ناشبا بين نسـائها من عوامل النزاع والشقاق العميق الجـــذور ، الذى لا يفتأ ينشب عادة بين كل النساء ، والذى كان من شأنه أن يؤدى آخر الامر الى هدم العائلة وتحطيم كيانها ..

وكان ثمة مصباح ذو غطاء زجاجى ، يعلو الخـوان الذى يتوسط ردهة الكوخ ، ويلقى ضوءا ساطعا على آنية خزفيـة منثورة فوقه ، وزجاجة « فودكا » تحيط بها ألوان متنوعة من الطعام . وفى أحد الاركان ، كانت ثمة أيقونات مزينـة بالرسوم على جانبيها .. وفى مـــكان الشرف من المائدة ، جلس فاسيلى ـ وقد خلع معطفه وبدا فى سترته السوداء الداخلية ـ وراح يعبث بشاربه ، وهو يدير بصره فى أنحـاء الكوخ ، ويتفرس فى الجالسين حوله بعينين بارزتين براقتين كعينى الصقر .. وفى المقعد التالى له ، جلس الشـــيخ الاصلع ذو اللحية البيضاء وهو رأس العائلة .. وكان يلبس قميصا أبيض اللون مصنوعا بالمنزل . وجلس بعـده الأبن الذى جاء من موسكو بمناسبة العيد ، وكان معتدل القامة عريض المنكبين يلبس قميصا أبيض يشبه قميص أبيه ، ولكنه من نسيج أجمل وأجود .. والى جانبه جلس أخـوه الذى يصغره . وكان ـ هو الآخر ـ عريض المنكبين .. وكان هو أكبر المقيمين بالمنزل من الابناء .. وتلاه الجار الثـرثار .. فلاح نحيف البنية أحمر الشعر .

وكان القوم يتناولون العشاء ، ويشربون « الفودكا » ، وقد أوشكوا أن يشربوا الشاى ، حينما وصـل القادمان .

وكان الابريق موضوعا بالفعل على النار ، والماء يغلى فيه.. وبعض الأطفال يحيطون بالموقد أو يجلسون على بعض الأرائك فى أطراف الردهة ، فى حين كانت المرأة العجوز واقفة خلف المقعد الذى يجلس عليه فاسيلى ، وقد ملأت التجاعيد كل وجهها ، حتى الشفتين .. فلما دلف نيكيتا الى داخل الكوخ ، كانت تتأهب لأن تقدم الى ضيفها بعض « الفودكا » فى قدح من الزجاج السميك ، وهى تقول له : « لاينبغى لك أن ترفضه يا فاسيلى أندريتش .. فانك لفى أشد الحاجة حقا الى شىء ينعشك أيها السيد العزيز ! »

وأثارت رائحة « الفودكا » نيكيتا وهزته هزا عنيفا ، وخاصة اذ كان شديد الاحساس بالبرد والجوع .. واذ كان ينفض الثلج العالق بثوبه توقف لحظة أمام الايقونات وعيناه تجولان بين الجالسين ، ثم ركع ورسم علامة الصليب ثلاث مرات .. وعاد بعد ذلك الى مضيفه فحياه ، ثم حيا الجالسين حول المائدة ، والمرأة الواقفة بجانب الموقد .. ثم راح ينزع عنه معطفه ، دون أن ينظر الى المائدة ، فنفضه ، وعلقه فوق المشجب القريب .

واقترب — أخيرا — من المائدة ، فلما قدموا اليه الفودكا ، كاد أن يتناول الزجاجة ويرفعها الى فمه ، لولا أن وقعت عينه — فى تلك اللحظة — على فاسيلى ، فعادت به الذاكرة فى الحال الى حذائيه المرهونين ، كما تذكر ابنه الذى وعده بأن يشترى له جوادا فى الربيع .. وهكذا انتهى به الأمر الى أن نحى عنه الزجاجة وهو يتنهد ، وقطب حاجبيه قائلا : « اننى لا أشربها .. أشكرك شكرا جزيلا . ثم ألقى بنفسه على مقعد بقرب النافذة . فقال الأخ الأكبر متسائلا : « ولكن لماذا ؟ » . فأجاب نيكيتا دون أن يرفع عينيه : « لأننى لا أشربها .. لا أشربها ! »

وقالت العجوز الرحيمة : « حسنا ، هات ابريق الشاى اذن .. سأحضر لك بعض الشاى ، لأنك لابد متجمد من البرد .. لماذاتأخرتن فى انجازالابريق يانسائى الطيبات؟» . فأجابت احداهن وهى تمسح بقطعة من القماش ابريق الشاى المفطى قائلة : « لقد انتهينا من اعداده ! » .. ثم رفعته ببعض العناء ، ووضعته على المائدة .. وكان فاسيلى — فى ذلك الوقت — يقص على مضيفه كيف ضل وتابعه طريقهما وهاما على وجهيهما فى الغابة ، وكيف تقابلا مع الفلاحين السكارى ، وكيف عادا الى القرية مرتين .. فقالت العجوز فى لهجة اقتناع : « ولكن أليس من المستحسن أن تقضيا الليل هنا ؟.. سوف تعد النسوة لكما الفراش » . فقال زوجها : « نعم ، ينبغى أن تبيتا هذه الليلة هنا ! »

وبادره فاسيلى قائلا : « كلا ، كلا .. قطعا لا أستطيع ذلك يا صديقى الفاضل ، فالعمل هو العمل .. وتأخير ساعة ، معناه ضياع سنة كاملة » . ثم راح يقص قصة مخزن الخشب ، والمنافسين الذين قد يسبقونه الى الفوز بالصفقة .. والتفت الى نيكيتا قائلا : « هل نذهب الآن ؟» . ولم يجب نيكيتا ، وانما بدا منهمكا بعض الوقت فى نفض الثلج عن لحيته وشاربيه . ثم غمغم أخيرا فى عبوس : « سوف يكون من الفظيع ان نضل الطريق مرة أخرى .. أليس كذلك ؟ »

وكان سر عبوسه فى الواقع أنه كان شديد اللهفة الى الفودكا ، وكان الشىء الوحيد الذى خفف عنه فرط لهفته هو ارتقاب الشاى الذى لم يكونوا قدموه اليه بعد .. الا أن فاسيلى أجابه فى اصرار : « ولكن ، لابد لنا أن نصل الى غايتنا .. ولا يمكن أن نضل الطريق بعد ذلك .. فما علينا الا أن نسلك طريق الغابة رأسا الى مقصدنا ! »

وقال نيكيتا وهو يتناول كوب الشاى الذى كان يقدم اليه فى تلك اللحظة : « حسنا ، فأنت الذى تقرر يا فاسيلى أندريتش .. ان كان لابد لنا من الذهاب ، فلنذهب .. هذا كل ما فى الأمر ! » . فقال فاسيلى : « اشرب الشاى اذن ، ولنسرع ! »

***

ولم يفه نيكيتا بكلمة أخرى ، وان هز رأسه فى استياء واستنكار . ثم صب الشاى بعناية فى القدح ، وبدأ يدفىء – فى البخار المتصاعد – أنامله المتورمة من البرد . وقال وهو يقضم بأسنانه قطعة من السكر ، وينحنى لمضيفه : « أتمنى لكم الصحة جميعا ! » .. ثم صب الشراب اللذيذ فى جوفه . وهنا قال فاسيلى متأوها : « ليتنا نجد من يقودنا الى منحنى الطريق ! » .. فقال الأخ الأكبر : « هذا يمكن تدبيره ، ففى امكان بتروشكا أن يسرج جوادا ويذهب معكما الى أبعد من ذلك » .

فقال فاسيلى : « اسرجه اذن أيها الأخ ، ولك أفضل تشكراتى » . فأجابته العجوز المضيافة : « ولك أنت يا سيدى الفاضل .. فقد سررنا كل السرور برؤيتكم » .

وتناول بتروشكا قبعته وهرول خارجا .. وبينما كان يعد جواده وجواد الضيف ، استأنف أصحاب الدار حديثهم الذى كانوا فيه قبل مجىء فاسيلى ومرافقه ، وقد بدا أن الرجل العجوز كان يشكو الى جاره – الذى كان هو الآخر رب عائلة – من تصرف ابنه الثالث ، اذ لم يرسل اليه هدية العيد فى هذا العام ، بينما أهدى زوجته شالا فرنسيا .. وراح الشيخ المتوجع ، يقول فى مرارة : « ان شباب هذه الأيام قد خرجوا عن الولاء لوالديهم » . فأجابه الجار : « حقا .. ولم تعد لنا حياة معهم ، فانهم ليزدادون وقاحة

.. أنظر الى ديموتشكين ، الذى كسر ذراع أبيه فى ذلك اليوم ؟!.. لم تعد لنا حياة معهم » .

وظل نيكيتا منصتا ، وهو ينقل البصر من واحد الى آخر ، وقد تملكته رغبة جارفة فى ان يساهم فى الحديث .. الا انه كان منهمكا كل الانهماك فى شرب الشاى ، فلم تعد لديه فرصة للكلام ، واكتفى بأن كان يهز رأسه فى موافقة واستحسان بين لحظة وأخرى .. ودب الدفء فى جسده واعتدل مزاجه ، بينما استمر الحديث طويلا حول هذا الموضوع ، وما يستتبعه من شر التسبب فيما يصيب العائلات من التفكك والانقسام ، وقد بلغ من اهتمام الحاضرين بالموضوع ، وتشبثهم به ، انه كان من العسير صرفهم عنه ، فراح يتشعب بهم ، ويتطرق الى ما ظهر فى سماء هذه الأسرة ذاتها من خصام بات يهدد العائلة كلها بالتصدع ، بسبب السلوك الذى نحا اليه الابن الثانى لرب الأسرة ، وهوالذى كان جالسا فىهذه اللحظة بين الحاضرين، وقد غرق فى كآبة وسكون .. وكان من الواضح أن موضوع الخلاف جوهرى جدا ، وأن الأدب وحده هو الذى منع العائلة حتى الآن من الخوض فيه امام القرباء .. الا أن الشيخ لم يستطع ان يمسك طويلا عن البوح به فانفجر — آخر الأمر — والدمع فى عينيه ، قائلا أنه طالما ظل على قيد الحياة ، فلن يسمح ابدا بوقوع الفرقة أو الانفصال بين افراد عائلته ، وانه سيحفظ وحدة بيته الى آخر رمق فيه من اجل مجدالرب .. لأنه اذاسمح لأحد ابناء هذا البيت بالانفصال عن الأسرة ، فسيتبعثر كله وينفرط عقده .

وقال الجار مؤمنا على قوله : « نعم . هذا ماحدث لبيت ماتفيف .. فقد كان يوما ما بيتا عامرا ، ولكنه انقسم وتفرق .. وما من واحد من ابنائه أصاب شيئا الا بدده ،

فانهار البيت من أساسه » . فالتفت الشيخ الى ابنه قائلا له : « هذا ما أظنك تريده بنا ؟ » .. ولم يحر الابن جوابا . وسكت الجميع سكوتا تاما ، حتى ارتفع بعد قليل صوت بتروشكا ، وقد فرغ من اسراج الجواد ، وعاد يقول باسما : « هذا يذكرنى بحكاية قرأتها فى كتاب بولسون ، عن أب أعطى ولده حزمة حطب ليكسرها مجتمعة فعجز .. حتى اذا فرقها وأعطاه واحدة منها ، كسرها كلها فرعا بعد آخر ، .. وهكذا الحال فى موضوعنا » ..

وسكت بتروشكا قليلا ، ثم نهض قائلا : « ولكننى على تمام الاستعداد للرحيل الآن ! » . فقال فاسيلى : « مادمت مستعدا ، فهيا بنا .. أما عن الانفصال الذى يشغل بالك أيها الجد الطيب فلا تدعه يقلقك كثيرا .. انك انت الذى اقمت هذا البيت ، واذن فينبغى أن تكون أنت صاحب الأمر فيه .. فاذا وجدت الأمر يستلزم عرضه على القاضى ، فاعرضه عليه ، ولسوف يحكم لك بما يريحك ويرضيك ! » . فهتف الشيخ فى حزن عظيم : « ولكن أن يتصرفوا هكذا؟!.. نعم ، لا حياة لنا معهم .. فانها لمن أعمال الشيطان كلها ! »

أما نيكيتا ، فكان قد أتم قدحه الخامس من الشاى ، وتطلع منتظرا قدحا سادسا ، الا أن الشاى كان قد نضب فى الابريق ، ولذلك فان ربة البيت لم تمد يدها اليه بما يريد .. فى حين كان فاسيلى قد ارتدى معطفه الفاخر المصنوع من الفراء .. واذ رأى نيكيتا أنه لابد — والأمر كذلك — من الرحيل ، وقف وأعاد ما تبقى من السكر فى الوعاء ، ومر بطرف ردائه على وجهه — الذى بدأ العرق يتفصد منه — وراح يرتدى سترته .. وزفر زفرة عميقة ، ثم تقدم بالشكر الى مضيفيه ، واستدار مغادرا الغرفة الدافئة المضيئة الممتلئة بالأنفاس ، الى البرد القارس

والظلام الدامس .. واجتاز عتبة الدار الى الفناء الفارق فى الدجنة ، حيث كان بتروشكا ينتظره ، وقد تلفع بدثار كثيف من فراء الشاة ، ووقف بجانب جواده يتغنى باسما بمقطوعة من أشعار بولسون ، يقول فى مطلعها :

« العاصفة الجارفة تحجب وجه السماء ..
« والريح القاصفة تقذف بالثلج المنهمر ..
« وهى كوحش كاسر تصرخ حينا ..
« وكطفل - حينا آخر - تنشج وتنوح » ..

وأومأ نيكيتا برأسه مستحسنا ، وهو يرفع الأعنة ، بينما أقبل الشيخ الى مدخل الدار ، ممسكا بيده مصباحا يحاول أن ينير به لفاسيلى طريقه الى العربة . الا أن ضوء المصباح راح يلهث متقطع الانفاس من فرط ما كان يناله من لطمات الريح .. فقد بدا واضحا أن العاصفة كانت - حتى فى داخل الفناء - أسوأ مما كانت فى أى وقت من الأوقات! .. وحينئذ قال فاسيلى فى نفسه : « لعلنا لن نصل أبداً .. وعلى أية حال ، هناك عمل ينبغى لى أن أفكر فيه .. فلابد من الذهاب » .. بينما كان الشيخ يقول فى نفسه أن من الأفضل للضيفين الا يذهبا . ولكنه كان قد بذل جهده - فعلا - ليثنيهما عن عزمهما ، ويقنعهما بالعدول عن مواصلة رحلتهما .. ومن ثم فلا فائدة من الالحاح .. أما بتروشكا ، فلم يكن يخطر بباله مطلقا أى خطر ، اذ كان يعرف الطريق وكل أرجاء المنطقة المجاورة تمام المعرفة ، كما أنه كان يألف الزوابع والأعاصير والثلوج .. وأما نيكيتا ، فلم تكن لديه أية رغبة فى مواصلة الرحلة ، الا أنه كان قد اعتاد منذ زمن طويل الا يكون له الخيار فى شىء ، وأن يقنع بطاعة الآخرين وخدمتهم .

- ٥ -

• تخطى فاسيلى عتبة الباب ، واتخـذ طريقه فى الظلام حتى بلغ العربة ، فولجها وهو يقبض على اعنة الجواد .

وانطلقوا من فناء الدار الى شـــارع القرية ، واجتازوا اطرافهـــا ، مندفعين فى ذات الطريق الـذى كان فاسيلى ونيكيتا قد سلكاه من قبل .. ومروا - بعد ذلك - بحدائق الكرم ، التى تنبعث من أعماقهـا همهمة غامضة وهسيس غريب .. وهنالك غاصوا - مرة أخرى - فى بحر من الجليد الذى كان ينهمر فوقهم ومن تحتهم .. وكانت الريح تهب فى عنف ، حتى لقد كانت تميل بالعربة على جنبها ، وتدفع بالجواد فينطلق فى خطوات أوسع من خطواته المعتادة .. وبينذاك ، كان بتروشكا يطلق صيحات الفروسية والحث على الاسراع والاندفاع ، وهو يقود فرسته القوية فى مقدمة الركب ، بينما يتبعها الجواد ويكاد ان يلتصق بها .

وبعد حوالى عشر دقائق من السير ، لوى بتروشكا عنان فرسته حائدا بها قليلا الى الخلف ، وهـو يصيح لمرافقيه ببعض كلمات .. الا انه لم يمكن لفاسيلى او نيكيتا ان يسمعا ما قال ، وان حدسا انه يريد ان يخبرهما بانهم وصلوا الى منحنى الطريق ، فقـد رأياه ينعطف هنـاك الى اليمين ..

وأصبحت الريح - التى كانت تلطمهم من الجنب - تصفعهم فى وجوههم ، فى حين ان ثمة شيئا قاتما اصبح فى امكانهم أن يروه بين الثلوج عن يمينهم ، وكان ذلك هو العلامة التى تدل على نقطة المنحنى ..

وصـاح بتروشكا : « امضيا فى سلامة الله ! » . فأجابه فاسيلى : « نشكرك .. نشكرك يا بتروشكا » .. وصاح

الفتى مرة أخرى : « ان العاصفة التى تجتاح سطح الأرض تحجب السماء » .

قال ذلك ثم اختفى .. ومضت بهما العربة فى طريقها .

ولكى لايبدد نيكيتا الدفء الذى اكتسبه من أقداح الشاى التى احتساها فى الدار ، دثر نفسه بردائه ولفه لفا محكما حول جسمه ، وحدب كتفيه حتى غطت لحيته القصيرة ما كان مكشوفا من مقدم رقبته ، وجلس فى صمت مطبق ، مصوبا عينيه الى الأمام عبر الطريق الملتف بالغيوم .. وكانت علامات الطريق لا تفتأ تلوح بين فينة وأخرى ، فكان امكان رؤيتها دليلا على انهما ما زالا فى الاتجاه الصحيح .. فأرخى فاسيلى أعنة الجواد ، تاركا اياه يقود نفسه .. الا أن « براونى » — برغم الاستراحة الطويلة فى القرية — راح يمشى على كره منه .. حتى أن فاسيلى كان كثيرا ما يقسره قسرا ، على أن يواصل السير فى طريقه ، وهو يعد علامات الطريق قائلا : « ها هى ذى علامة عن يميننا .. وهذه ثانية .. وهذه ثالثة .. وها هى ذى الغابة فى مواجهتنا ! »

وهكذا راح يحدث نفسه ، وهو يتفرس فى شىء ما كان يبدو داكنا امام عينيه .. **الا أن ما تراءى له على البعد غابة مترامية الأطراف ، ما لبث أن اتضح أنه مجرد دغل صغير .. فلما تجاوزاه بخمسين ياردة أخرى ، حدق فاسيلى منعما النظر ، فاخذه العجب ، وصدمته المفاجأة ، اذ لم تعد ثمة غابة ، ولا علامة من علامات الطريق يمكنه أن يراها ..** على أن فاسيلى ما لبث ان قال فى نفسه ، وهو منتعش الاحساس بما احتسى من الشاى والفودكا : « لابأس .. فلسوف نبلغ الغابة بعد قليل ! »

وراح يهز اعنة الجواد مرة أخرى ، والجواد الطيع لايجد

مندوحة عن أن يمتثل لمشيئة سيده ، فيمضى الى حيث ساقه متهاديا مرة ، ومنطلقا أخرى ، وهو يعلم كل العلم أنه كان يسير فى الاتجاه الخاطىء .. وهكذا مضت عشر دقائق أخرى ، دون أن تبدو الغابة أمام الركب .. وأخيرا قال فاسيلى : « لقد ضللنا الطريق مرة أخرى ! »

***

ونزل نيكيتا من العربة فى صمت مطبق ، وثنى أطراف سترته التى كانت تلتصق بجسمه حينا ، وتتطاير فى الهواء حينا آخر .. وراح يتخبط ضاربا بقدميه فوق الثلوج .. وما لبث أن رجع آخر الأمر ، وتناول الأعنة من «فاسيلى» ، وقال فى لهجة حاسمة ، وهو يميل بالجواد الى ناحية اليمين: « يجب أن نتجه يمينا » .. فأجابه فاسيلى : « حسن جدا .. اذا لم يكن بد من أن نتجه يمينا ، فلنتجه يمينا ! » .. ثم شبك يديه المخدرتين — من البرد — فوق كمى سترته .

ولكن الجواد لم يتقدم خطوة واحدة ، برغم كل مابذله نيكيتا وهو يحثه ويجذب أعنته .. بينما كان الثلج يتراكم بغزارة ، والعربة تتحرك فى لجنه وهى ترتج وتترنح مع كل دفعة من دفعات الجواد .. وما لبث نيكيتا أن أهوى بالسوط على ظهر الجواد الطيب ، الذى لم يكن قد تعود الضرب ، فقفز الى الأمام ، وراح يخب فى بحر الثلوج لحظة .. ثم عاد فتخاذل ، وراح يترنح فى سيره نحو خمس دقائق أخرى .. وكان الظلام قد اشتد ، والثلج ماض فى انهماره حتى لم يعد فى وسع الراكبين أن يريا رسن الجواد ، وكانت العربة بينذاك تتأرجح بهما ، ثم ما لبثت أن وقفت جامدة . وأجفل الجواد فجأة ، اذ اشتم رائحة شىء أمامه .. فألقى نيكيتا الأعنة ، وقفز فى خفة من العربة كى يقترب

من رأس الجواد ويتبين ما دهاه . **ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة ، حتى انزلقت قدمه وانكفأ فى هوة فتحت فاهها أمامه ، وراح يتدحرج فى منحدرها وهو يصرخ ويحاول عبثا أن يتوقف فى اندفاعه ، حتى غاصت قدماه فى لجة ثلجية عميقة عند القاع ..** وانهارت فوق رأسه أكوام الصقيع المتراكمة على جنبات الهوة ، والتى حاول التشبث بها أثناء سقوطه ، وقد غطاه ركامها حتى قفاه .

وراح نيكيتا يحاول دفع الثلج عن ياقة سترته وهو يقول متأففا : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » .. بينما انطلق فاسيلى يناديه : « نيكيتا .. نيكيتا ! » .. الا أن هذا لم يحر جوابا اذ كان واضعا كل همه فى أن يخلص نفسه من ركام الثلج المنهار عليه ، وهو يبحث — فى ذات الوقت — عن السوط الذى سقط منه وهو يتدحرج فى المنحدر . فلما وجده آخر الأمر ، بدأ يحاول أن يتسلق جدار الهوة ، ولكنه تبين — بعد الجهد — أن الأمر مستحيلا ، وانه كلما كرر محاولته ، كان ينحدر الى أعمق مما كان . وأخيرا اضطر أن يبحث — فى القاع السحيق — عن منفذ يخرج منه .. وبعد طول العناء ، وجد على بعد بضع ياردات من البقعة التى سقط فيها ، مكانا استطاع أن يتسلق عنده زاحفا على أطرافه الأربعة ، نحو الاتجاه الذى قدر أن يكون الجواد واقفا فيه .. ومع انه لم يكن يرى شيئا ، فقد استطاع أن يسمع صيحات فاسيلى ، وصهيل « براونى » الذى راح يحتفى بعودته .. فأجابهما صائحا : « ها أنذا مقبل !.. ها أنذا مقبل !.. لماذا تثيران الضجيج من أجل ذلك ؟ »

وراح يقترب منهما .. الا انه لم يتمكن من رؤية الجواد ، الا بعد أن صار ملاصقا له . وكان فاسيلى واقفا بجانبه فى الظلام وقد تجمد من البرد ، فبادره قائلا فى غضب : « كيف

بحق الشيطان تسعى هكذا الى حتفك ؟.. هيا بنا نعود ، أو - على الأقل - نحاول أن نرجع الى جريشكينو » . فأجاب نيكيتا قائلا : « لسوف أكون سعيدا جدا بهذا ، ولكن فى أى طريق نذهب ؟.. لو اننا سقطنا فى هذا الخندق - الذى سقطت فيه - فلن نخرج منه الى الأبد .. وقد تحققت بنفسى من ذلك الآن ! » .. فقال فاسيلى : « ولكننا لانستطيع أن نبقى هنا .. ويجب أن نذهب الى أى مكان ! »

ولم يقل نيكيتا شيئا ، وانما جلس على حافة العربة وخلع حذاءيه ، ونفض الثلج الذى انحشر فيهما وتراكم عليهما .. **وبينذاك ، سكت فاسيلى ، وقد اعتزم أن يترك الأمر كله لنيكيتا . فلما انتهى هذا من لبس حذاءيه مرة أخرى ، دس قدميه فى العربة ، وارتدى قفازيه ، وأمسك عنان الجواد ، وأدار عنقه فى محاذاة الخندق فى حذر ..** على أن الجواد أجفل - مرة أخرى - ولما يقطع أكثر من مائة ياردة ، اذ اعترضهم خندق آخر .. ونزل نيكيتا من العربة ثانية ، وراح يتحسس بين الثلوج . وغاب بعض الوقت ، ثم لاح - أخيرا - فى الاتجاه المضاد للعربة ، وصاح قائلا : « هل أنت هناك يا أندريتش ؟.. لا طريق فى هذه الناحية .. والظلام حالك .. وثمة خنادق كثيرة تحيط بنا .. فعلينا أن نحاول العودة ضد اتجاه الريح » .

الا أنهما ما سارا فى هذا الاتجاه بعض الوقت ، حتى توقفا مرة أخرى . ونزل نيكيتا يتحسس الطريق فوق الثلوج . ثم عاد فركب العربة .. وعاود الى النزول منها .. وهكذا حتى تقطعت انفاسه - فى النهاية - من فرط العناء . فسأله فاسيلى قائلا : « ماذا حدث ؟ » . فأجاب : « لاشىء الا أن التعب أنهكنى .. كما أنهك الجواد » . فقال فاسيلى : « وما العمل اذن ؟ »

وذهب ، وعاد ــ بعد لحظة ــ وصاح قائلا ، وهو يسير أمام الجواد : « اتبعنى ! » .. فتبعه فاسيلى ، الذى كان قد كف عن اصدار الأوامر ، وراح يذعن لتوجيهات نيكيتا فى تواضع تام .. وصاح هذا مرة أخرى قائلا : « فى هذا الاتجاه .. سر خلفى ! » . ثم استدار استدارة تامة نحو اليمين ، ممسكا « براونى » من رأسه ، وجاذبا اياه نحو كومة الثلج .. وأجفل الجواد ــ فى اول الأمر ــ ثم اندفع الى الأمام محاولا القفز فوق الكومة .. الا انه اذ أخفق فى محاولته ، غاص فى الثلج حتى طوقه .. فصاح نيكيتا لفاسيلى أن يساعده ، وراح يبذل كل قوته فى معاونةالجواد على سحب العربة من كومة الثلج .

***

وبذل الجواد مجهوداباسلا ، ولكنهفشل ــ آخر الأمر ــ فى تخليص نفسه .. ومن ثم توقف متخاذلا ، معبرا عن حنقه واستيائه من الموقف كله . ولكن نيكيتا راح يدفعه من ناحية ، وفاسيلى يدفعه من الناحية الأخرى .. وظل الجواد يهز رأسه لحظة ، ثم ما لبث أن نهض فجأة ، واندفع الى الأمام فى محاولة أخرى .. وحينئذ صاح نيكيتا مشجعا اياه ، قائلا له : « مرحى !.. ها انت ذا لاتريد أن تدفن هذه المرة . هيا !.. ابذل جهدك ! » .. ودفع الجواد نفسه مرة ثانية ، ثم ثالثة .. حتى ازال كومة الثلج من حوله .. ثم وقف بعد ذلك ينفض نفسه ، ويهز جسمه كله وهو يتنفس تنفسا عنيفا .. بينما راح نيكيتا يدفع العربة قليلا الى الأمام . اما فاسيلى فقد كان التعب قد أخذ منه تحت عبء رداءيه الثقيلين ، فما كان منه الا أنه توقف عن أى عمل ، وجلس فى العربة مرة أخرى ، وهو يغمغم قائلا :

« فلأسترح قليلا ! » . وراح بينذاك يفك عقدة المنديل الذى الذى كان قد ربطه حول عنقه قبل أن يغادر العربة . فأجابه نيكيتا : « استرح .. فليست بنا حاجة للاستعجال .. ولسوف أقود أنا الجواد ! » .

وتقدم بالعربة نحو عشر ياردات ، عبر منحدر اعترضها ، ثم ارتفع بها فى مستوى الطريق مرة أخرى .. وهناك مالبث أن توقف .. ولم يكن توقفه ــ هذه المرة ــ فى الخندق ذاته ، حيث كان الثلج يتجمع منحدرا من الربى ويتراكم حتى ليوشك أن يغمرهما الى رأسيهما ويدفنهما فى لجته .. على أن توقفه جاء ــ مصادفة ــ فى الجانب المحمى من الريح من الخندق ، فبدا ان شدة الريح قد خفت بعض الشىء .. الا ان ذلك لم يستمر طويلا ، فما لبثت العاصفة أن انطلقت من عقالها وازداد عنفها عشرة أضعاف ، وراح الاعصار يدمدم ويحوم حولهما ، مرسلا زئيرا أرهب وأشد هولا من أى وقت مضى .. وقد لطمت احدى هبات الريح المجنونة جانب العربة ، بينما كان فاسيلى يغادرها ليقترب من نيكيتا ويتشاور معه فيما يفعلانه بعد ذلك .. وحينئذ بسط براونى أذنيه فى يأس وهز رأسه فى اعياء واستياء . فلما انكسرت حدة العاصفة بعض الشىء بادر نيكيتا فخلع قفازيه ، ثم فرك يديه وراح يفك عنان الجواد من السرج ..

وسأله فاسيلى : « لماذا تفعل ذلك ؟ » .. فأجاب قائلا : « لأنه ليس ثمة شىء آخر يمكننا عمله .. اننى متعب جدا الآن » . فقال فاسيلى : « ألسنا مزمعين اذن أن نحاول التقدم أى مسافة أخرى ؟ » . وأجابه : « كلا . لأننا لم نفعل سوى أننا أرهقنا الجواد فى غير طائل .. ان براونى على استعداد لمواصلة الرحيل ، ولكنه لم يعد يستطيع أن

الحال بدا المنديل يخفق بشدة ويصفق فى مهب الريح .
ونزل فاسيلى وهو يتيه زهوا بما فعله ، ويختال قائلا : « أليس هذا ذكاء منى ؟ » .. ثم التفت الى نيكيتا قائلا له : « والآن ، لو امكننا أن ننام معا ، فلسوف يكون ذلك أفضل طريقة لاكتساب الدفء .. ولكننى أخشى الا يكون ثمة مكان لنا معا ! » .. فأجابه نيكيتا : « لا بأس فى ذلك ، فسأجد مكانا لنفسى .. الا أننى يجب أن أغطى الجواد أولا ، لأنه يتصبب عرقا وقد أخذ منه الجهد .. انتظر قليلا ! » ..
وولج العربة ، فجذب الفرارة من تحت فاسيلى وطواها ، ثم أزاح السرج عن ظهر الجواد ، وغطاه بالفرارة ، وهو يقول له : « سوف تكون بذلك أكثر دفئا أيها الفر الصغير » .. ثم اتجه الى فاسيلى قائلا له : « سآخذ المئزر اذا كنت لا تحتاج اليه الليلة .. وهات بعض القش كذلك ! »

واذ أخذ ما أراد ، ذهب خلف العربة ، وحفر حفرة غطاها بالقش ، ثم جذب قلنسوته فوق عينيه ، ولف سترته لفا محكما حول جسمه ، ثم تلفع بالمئزر فوق كل ملابسه ، واستلقى مقرفص القدمين فوق القش ، وأسند ظهره الى مؤخر العربة محتميا به من الريح والثلج .

وهز فاسيلى رأسه فى استياء من تصرفات نيكيتا ، ثم راح يعد عدته لقضاء الليل . فعمد - أول كل شىء - الى تسوية ما تبقى من القش فى العربة ، جاعلا اياه أكثر كثافة وسمكا حيث كان يزمع أن يريح فخذه .. ثم نوع قفازيه ، ونام جاعلا رأسه فى أحد أركان العربة ، قرب اللوحة الامامية لها حتى تحميه من الريح .

***

الا أنه مع ذلك لم يشعر بالنعاس ، ولم يأنس من نفسه آية

قابلية للنوم . فانطلق يفكر .. اتجه تفكيره - أول ما اتجه - الى الشىء الوحيد الذى يستحوذ على كل طموحه وفخره ، ومثله الاعلى ، وغرضه الاوحد وسعادته فى الحياة .. وهو جمع المال !.. فراح يستعرض الوسائل التى امكن لبعض من يعرفهم من الاغنياء أن يجمعوا بها أموالهم ، والاغراض التى كانوا يستغلون فيها هذه الاموال .. ثم انتقل الى التفكير فى الاساليب التى يمكنه هو أن يحذو فيها حذوهم ، فيجمع قدرا من المال فوق ما جمع .. وبدا له أن شراء غابة جيوفيا - تشكنسكى) يعتبر امرا ذا أهمية عظمى ، اذ داعبه الامل فى أن صفقة كهذه قد تدر عليه عشرة آلاف روبل .. وقد راح يحصى - بعملية حسابية أجراها داخل عقله - قيمة الاخشاب التى رآها فى الخريف .. وعلى أساس الخمسة أفدنة التى كان قد عاينها ، راح يحسب قيمة المساحة كلها .. واستطاع - بعد طول الحساب - أن يقدر قيمة الغابة كلها بحوالى اثنى عشر ألفا من الروبلات .. الا انه عجز عن أن يصل بالذاكرة وحدها الى رقم دقيق .. فاسترسل يقول لنفسه : « لا بأس .. فاننى لن أقدرها بأكثر من عشرة آلاف - بل ثمانية آلاف - وهذا على أى حال سيكون محلا للمساومة بالنسبة لمثل هذه المساحات غير المحدودة .. **ولسوف ادس فى يد المساح مائة روبل ، او ربما مائة وخمسين .. وفى مقابل هذا يبخس المقياس عشرة افدنة على الاقل . نعم . ان المالك سوف يكون سعيدا بان يبيع الغابة بثمانية آلاف روبل .. ومعى ثلاثة آلاف منها »** .

وهنا تحسس حافظة نقوده داخل صدرته ، ثم عاد يقول فى نفسه : « ولكن أين مالك الغابة ؟ .. لا بد أن يكون لها مالك أو على الاقل حارس .. ولا بد أن يكون مقيما فى جهة ما

من هذه المنطقة .. ولا بد أن كلبه قد سمعنا .. تبا لهذه الحيوانات الملعونة ، التى لا تنبح حينما يراد منها أن تفعل ذلك ! » .. وأزاح ياقة سترته عن اذنه وراح ينصت .. ولكنه لم يسمع سوى أزيز الريح ، وخفق المنديل فوق العريش ، ووقع الثلج وهو يصفع جوانب العربة .. فغطى أذنه مرة أخرى ، واسترسل فى تفكيره ساخطا لما أصابهما .. ثم اجاب نفسه مواسيا : « ألسنا سنبقى هنا الى غد ؟.. لا بأس . معنى هذا أننا أضعنا يوما واحدا فحسب . وفضلا عن ذلك ، فان أولئك المنافسين لى فى الصفقة لن يصلوا كذلك .. لن يأتوا فى مثل هذا الجو العاصف ! »

وهنا تذكر فجأة ان الجزار سيسدد له فى التاسع من الشهر مبلغا من المال هو ثمن الكباش التى سبق أن اشتراها منه .. فقال فى نفسه : « يجب أن أعود لأقبض هذا المبلغ ، اذ لا ينبغى أن يغلبنى فى السعر ، فى حين أن زوجتى لا تعرف كيف تساوم .. والحقيقة أنها لا تعرف كيف تتكلم مع أى شخص ! » .. وتذكر ارتباكها وهى تحادث المأمور حين زارهم — فى اليوم السابق — بمناسبة العيد ، فاسترسل فى تفكيره قائلا : « انها امرأة .. هذا كل ما فى الامر بالنسبة اليها . وفوق ذلك ، فماذا رأت هى قبل أن أتزوجها ؟.. لقد كان أبوها مزارعا بسيطا ، وكان كل ما يمتلكه قطعة أرض صغيرة .. اما انا ، فاى شىء لم أنله فى خمسة عشر عاما ؟.. لقد اقتنيت حانوتا ، وفندقين ، ومطبخا ومخزن غلال ، ومزرعتين مستاجرتين ، ودارا ذات سقف من الصاج ، ومتجرا فى ذات مبنى الدار » .. وانتفخت أوداجه تيها وزهوا ، وهو يقول لنفسه : « ان البون شاسع بينى وبين أبيها .. وفى الواقع ، من هو أهم رجل فى الاقليم كله ؟.. انه فاسيلى بريخونوف ، من غير شك ! »

ثم تساءل قائلا : « لماذا ؟ » .. واجاب نفسه قائلا : «لأننى احصر كل همى فى العمل ، وأبذل فيه كل مجهودى .. فلست من أولئك الذين ينامون فى فراشهم ، ويبـــددون الوقت فى العبث .. كلا ، فأنا لا أنام كل الليـــل .. واذا كان هنالك ضرورة للخــــروج ، فاننى برغم كل الظروف أخرج ، وانجز عملى .. انهم يعتبروننى مجنـونا ويسخرون من انكبابى على جمع المال .. ولكن لا بأس » .. وأهاب بنفسه فى حماس : « فاسيلى ، استمر فى عملك بكل جهدك ، ولو ادى ذلك الى اصابة رأسك بالصداع .. ولو وجـدت من اللازم أن تقضى ليلتك فى العراء كما تقضى هذه الليلة ، فهذا أفضـــل من أن تضيع الوقت .. ولا يهم حتى اذا كنت تعجز عن النوم ! »

وهنا قال فى زهو : « ان مجرد التفكير على هـذا النحو دليل على العبقرية فى‌ذاته » .. واستطرد قائلا : « ان بعض الناس يعتقدون أن الثروة تأتى للانسان بطريق الحظ .. هراء ، فليس ثمة الا ميرونوف واحد فى المليـون .. وانما عليك أن تعمل باجتهاد ، وسيعطيك الله الباقى بعد ذلك .. واذا لم يهبك الا الصحة والقوة ، فهذا حسبك ! »

وأثار حماسه مجرد خطور هذه الفكرة فى باله ـ انه قد يغدو يوما ما مليونيرا مثل ميرونوف ـ حتى انه ود لو ان ثمة شخصا يبادله الحديث فى هذه اللحظة .. بيـد انه لم يكن ثمة أحد .. وأثار انتباهه عنف هبوب الـــريح وهى تلطم اللوحة الامامية للعربة ، وتصفع جدارها بما تحمله من ركام الثلج ، فهتف قائلا : « ياللسماء ، ما أشد هبوبها !.. انهـا لتجرف معها كتل الجليد بكمية رهيبة ، حتى ليوشـك أن يغمرنا ويغطينا ، ولسوف نعجز عن أن نخـــرج أبدا من طوفانه عند الصباح ! »

***

ولم يكن بوسعه أن يرى شيئا – فى الدوامة المحملة بالثلج الابيض الكثيف – الا رأس « براونى » وذيله الاسودين ، والفرارة التى كانت تغطى ظهره .. وكانت الريح ترفع أطراف الفرارة الى أعلى – من آن لآخر – بينما تحوم الكتلة البيضاء حول العربة من كل جهاتها ، فكانت تبدو – فى لحظة خاطفة – ثم لا تلبث أن تختفى فى غمرة الظلام .

واسترسل فاسيلى فى التفكير قائلا لنفسه : « لقد كنت أحمق اذ استمعت الى نيكيتا .. كان ينبغى علينا أن نواصل السير مرة أخرى ، حتى نتمكن من قضاء ليلتنا فى مكان ما .. كان يجب أن نعود الى (جريشكينو) مرة أخرى ، وان نستقر فى مكان مسقوف .. ومع ذلك ، فهانحن هنا ، وعلينا ان نظل ملتصقين بهذا المكان حتى الصباح ؟.. ما الخير فى هذا ؟ ان الله يعطى المجتهدين ، ولكنه لا يعطى العابثين ولا الكسالى المقعدين ، ولا الحمقى .. والآن ، لأدخن ثانية ! »

وجلس ، وأخرج سيجارة ، واستدار ليحمى شعلة عود الثقاب من الريح بطرف ثوبه .. ومع ذلك ، فقد وجدت الريح منفذا وراحت تطفىء أعواد الثقاب تباعا . وأخيرا ، بذل كل جهده كى يبقى واحدا منها مشتعلا ، وقد أفلح فى أن يشعل منه سيجارته ، ففرح بذلك جدا ، وواصل التدخين .. ومع أن الريح استنفدت قدرا كبيرا من الدخان ، فقد اجتهد فى أن يفوز بثلاثة أنفاس ، ابتهج بها كل الابتهاج ، فاتخذ وضعا مريحا فى جلسته ، وحبك ثيابه حول جسمه ، وانطلق مرة أخرى يفكر ويستعرض الامور ، حتى شعر فجأة – ودون تمهيد أو انذار – بأنه فقد وعيه ، وراح فى غيبوبة تامة .

وبعد برهة ، أحس كأن شيئا صدمه فجأة ، فتنبه وأفاق

من غيبوبته .. لعله ((براونى)) يجذب القش من تحته .. أو قد يكون ذلك أمرا ما ، حدث فى داخله .. المهم أنه استيقظ ، وكان قلبه يخفق خفقانا عنيفا ، وفى سرعة هائلة ، حتى أنه أحس ان العربة ذاتها تهتز من تحته . ففتح عينيه .. وبدا له المنظر حواليه كما كان من قبل ، فيما عدا أنه بان أكثر وضوحا ، وأوفر ضوءا ، فقال فى نفسه : « لابد أنه الفجر .. وبعد قليل سوف ينبلج الصباح » .. ولكنه فطن الى أن ازدياد الضوء قد لا يعنى الا طلوع القمر ، فنهض مرة أخرى ، ونظر الى الجواد .. وكان فى هذه اللحظة واقفاومؤخره فى مهب الريح ، وجسمه كله ينتفض من البرد ، وقد تراكم الثلج على ظهره ، وأفلت حزام ذيله متدليا نحو خاصرته .. أما نيكيتا فكان لا يزال نائما فى ذات الوضع الذى كان قد غطى به رأسه .. وقال فاسيلى فى نفسه ، وهو يطل عليه من العربة : « ان الفلاح لا يؤثر فيه الثلج أبدا ، بالرغم من رثاثة ملابسه ! »

وفكر لحظة فى أن ينزع الفرارة عن ظهر الجواد ، ويغطى بها نيكيتا . الا أن الجو كان قارس البرد ، حتى لقد أحس بأنه عاجز عن أن يفعل ذلك ، فضلا عن أنه خشى أن يموت الجواد من البرد لو نزع عنه غطاءه .. وحينئذ قال فى نفسه حانقا : « لماذا بالله أخذت نيكيتا معى ؟ لقد كان ذلك من جراء حماقتها .. » وكان يعنى بذلك زوجته . ثم عاد الى وضعه الاول محتميا باللوحة الامامية للعربة .. **واسترسل فى تفكيره قائلا لنفسه : ((لقد قضى عمى ليلة كهذه تحت وابل الثلج ، ومع ذلك لم يصبه أى سوء !)) .. الا انه مالبث أن خطر بباله خاطر آخر فغمغم قائلا : ((وكذلك سيباستيان ، اخرجوه من الثلج ، ولكنه كان قد مات ، اذ تجمد حتى غدا كالجيفة من فرط البرد !)) .. وهنا ندت عنه آهة مكبوتة**

وقال فى ندم موجع : ((ماذا لو كنا بقينا فى جريشكينو !))

ثم أحكم لف ردائه حول جسمه ، بحيث لم يدع مجالا لأقل قدر من الدفء يذهب هباء .. واغمض عينيه محاولا أن يستغرق فى النوم مرة أخرى .. الا أنه ـ بالرغم مما بذل من مجهود فى هذا السبيل ـ أخفق فى اجتلاب النعاس الى عينيه .. وألحت عليه اليقظة أكثر من ذى قبل ، فراح ـ مرة أخرى ـ يجرى فى ذهنه احصاءات وحسابات ، متعلقة بالعمل ، ويحصر ديونه التى لم يسددها بعد . ومرة أخرى راح يثنى على نفسه ، ويزجى الى نفسه التهنئة على ما نال من مكانة ملحوظة بين الناس .. ومع ذلك ، فقد كان هذا التفكير ذاته مشوبا بنوع من الخوف الدفين والاسف البالغ على أنه لم يقض الليلة فى (جريشكينو) ..

وراح ينقلب من جنب الى جنب ، عساه يستشعر الراحة فى نومته ، أو يجد وضعا أفضل من سواه وأقل تعرضا لهبوب الريح ، الا أنه عبثا كان يحاول .. وأخيرا نهض مرة أخرى ، وغير الوضع كله ، وأحكم لف قدميه ، وأغمض عينيه ، وحاول أن ينام نوما مريحا ، ولكن قدميه ـ اللتين كانتا مضغوطتين فى حذائيه الطويلين ـ بدأتا تؤلمانه ، فى حين كانت الريح تتسرب الى بعض أنحاء جسمه ، فتؤذيه أذى بالغا . فما لبث أن قفزت الى ذهنه مرة أخرى ـ وقد تملكه الضيق والحنق ـ فكرة أنه كان من الممكن فى هذه اللحظة أن يكون نائما فى فراش دافىء فى (جريشكينو) .. فنهض وأعاد حبك ردائه حول جسمه ، ثم استلقى فى وضع آخر بدا له أكثر ملاءمة .. **وبعد لحظة خيل اليه أنه يسمع صوت ديكة تصيح من بعيد ، فأزاح ياقة سترته فى اختلاجة فرح ، وراح يرهف أذنيه . وبالرغم من كل ما بذل من الجهد فى الانصات لم يستطع أن يسمع الا أزيز الريح خلال**

عريش العربة ، وصوت اصطفاق المنديل ، ووقع الثلج على جوانب العربة ..

أما نيكيتا ، فقد ظل مقرفص القدمين — فى ذات الوضع الذى نام عليه فى أول الليل — فلم تصدر عنه حركة واحدة ، بالرغم من أنه ناداه أكثر من مرة .. فانفعل فاسيلى فى حنق ، وقال فى نفسه : « يبدو أنه لا يشعر بأى تعب فى نومته » .

***

وموجز القول ، أن فاسيلى نهض ثم نام عشرين مرة ، على الاقل . وقد خيل اليه أن الليل لن ينتهى أبدا .. وفى احدى المرات قال فى نفسه : « لابد أننا اقتربنا من الصباح الآن !.. فلو أننى تأكدت من أننا نقترب من الصباح ، لكان هذا أدعى لأن تبدو الامور أفضل ، ولسوف نستعد عندئذ لأسراج الجواد كى نواصل رحلتنا » .. ولكنه — فى أعماق نفسه — كان يدرك أنه لا يمكن أن يكون الصباح قد اقترب بعد .. وكان هلعه يزداد عنفا ، وأعصابه تشتد اضطرابا ، حتى لقد راح يخادع نفسه ويصدق أن الفجر على وشك الطلوع .. وأخيرا انتهى به الامر الى أن فك أزرار ثوبه الفرو فى حذر ، ودس يده فى داخله ، وراح يتحسس بأصابعه حتى وصلت الى جيب صدرته . وبكثير من الجهد أمكنه أن يخرج ساعته الفضية المنقوش عليها باقة زهور .. ثم حاول أن ينظر فيها ، ولكنه عجز عن أن يرى أى شىء بغير أن يستعين بقبس من النور ، فاستلقى مرة أخرى على مرفقيه كما فعل حين أراد التدخين ، ثم أخرج علبة الثقاب وراح يحاول أشعال عود منها .. واذ كان قد تدرب فى المرات السالفة على هذا الامر ، فقد أشعل الثقاب قريبا من ميناء الساعة .

وعلى ضوئه نظر فيها ، وكاد ألا يصدق عينيه !.. لقد كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق ! واذن فقد كان الليل بطوله أمامه !

وشعر كأن الصقيع قد تسرب الى ظهره ، فقال وهو يئن من فرط الألم : « آه ، من ذلك الليل الطويل الذى لا آخر له ! » . ثم انزوى فى ركن العربة وهو يزرر رداءه ويعيد حبكه حول جسمه ، وراح ينتظر بكل ما لديه من صبر وجلد .

وفجأة ، خلال عويل الريح التى كانت تولول وتنوح فى نغمة رتيبة ، سمع صوتا جديدا يصدر عن كائن حى ، وقد راح يعلو ثم يعلو حتى بلغ حده الاقصى ، ثم بدأ يخفت شيئا فشيئا حتى انقطع واختفى .. **ولم يكن ثمة شك فى حقيقة هذا الكائن الذى يصدر عنه الصوت .. كان ذئبا ، ولابد انه كان قد ابتعد جدا حتى تلاشى صوت عوائه بين طيات الريح ..** وأزاح فاسيلى ياقة سترته عن أذنه وراح يرهف السمع .. وكان « براونى » ـ فى ذات الوقت ـ يفعل مثله ، وقد نصب أذنيه الى آخر مداهما ، فلما انقطع العواء ، بدل أقدامه ، ونخر فى توجس وقلق .. أما فاسيلى فقد وجد أن النوم أصبح بعد هذا أكثر استحالة من اى وقت مضى ، وعبثا حاول أن يهدىء أعصابه لحظة واحدة .. وكلما حاول أن يعود الى التفكير فى أعماله وحساباته وشهرته وعبقريته وماله وثروته ، ازدادت سيطرة الرعب عليه .. وبدأ يحس بالرعدة تسرى فى بدنه ، وان لم يعلم ـ على وجه التحقيق ـ أكان ذلك من البرد ، أم من شدة الخوف .. وقد حاول ان يفطى نفسه وينام كما كان من قبل ، ولكنه وجد ذلك مستحيلا . ولم يستطع ان يبقى ساكنا ولو لحظة واحدة ، وانما شعر على العكس بأنه يجب

أن ينهض وان يفعل أى شىء كى يبــدد الرعب الذى كان مسيطرا عليه ، وكان يشعر بأنه لم تعد له قوة ازاءه ، وقد انهارت تحت وطأته مقاومته ، فأخرج علبة سجائره وعلبة ثقابه مرة أخرى ، الا انه لم يكن قد بقى من أعواد الثقاب الا ثلاثة ، وكان الثلاثة من نــوع ردىء .. ومن ثم فانها لم تشتعل .. فانفجر يسب ويلعن ، وهو يلقى علبــة الثقاب بعيدا ، واوشكت علبة السجاير ان تلحق بها ، لولا انه كبح يده ، وأدخل العلبــة فى جيبه . **ودفعت به نوبة الضجر والتململ هذه الى أن ينهض من مكانه وينسل من العربة ، ثم يقف معطيا ظهره للريح ، وهو يشد حزامه حول خصره .. ثم بدا كأنما طرأت على ذهنه فكرة جديدة مفاجئــة ، فهتف قائلا : « لماذا بالله ننام هاهنا منتظرين الموت حتى يأتى الينا ؟.. لماذا لا أركب الجواد وانطلق به ؟ »**

وخطر نيكيتا بباله ، فأجفل قليلا ، ثم عاد يقول : « وماذا لو مات ؟.. ماذا يمكن أن تكون قيمة حياته بالنسبة اليه ؟.. انه لن يخسر كثيرا لو انه فقدها .. أما أنا فأن امامى الشىء الكثير الذى أكسبه لو اننى احتفظت بحياتى » .

وعلى ذلك حل رباط الجواد وألقى الرسن فوق رقبته ، وحاول أن يمتطيه . الا أن رداءه الفرو وحذاءيه أثقلتــه فاعتلى العربة ، وحاول ان يمتطى الجواد من فوقها ، ولكن العربة ظلت تتأرجح تحت ثقله ، ففشل مرة أخرى . وأخيرا – وللمرة الثالثة – جر الجواد ، وأوقفه بجانب العــربة ، واعتلى حافتها فى حذر ، ثم ألقى بنفسه على الجواد ، فاذا هو ممدد على ظهره بالعرض ، ووجهه الى أسفل ، فــراح يدير جسمه الى الامام حتى أصبحت ساقه فوق الجواد . وبعد عدة محاولات ، أمكنه أن يجلس على ظهــره ، وقد استقر مقــدم حذائيــه فى ركاب السرج .. الا ان اهتزاز

العربة ــ حين تأرجحت تحت ثقل فاسيلى ــ أيقظ نيكيتا ، فنهض من رقدته . وبدا لفاسيلى أنه يقول شيئا ، فصاح فيه قائلا : « اسمع أيها الاحمق .. لقد كنت انت السبب فى وقوعنا فى هذه الورطة ، بلا داع ولا سبب ! »

ثم طوى الاطراف المرتخية من سترته تحت ركبتيه ، وادار عنان الجواد وابتعد به عن العربة فى الاتجاه الذى حدس أن يكون به مسكن مالك الغابة أو حارسها .

- ٧ -

• **ولم** يكن نيكيتا الى هذه اللحظة قد صدرت عنه حركة واحدة منذ استلقى مقرفصا قدميه خلف العربة وغطى نفسه بالمئزر .. فانه ــ ككل الذين يعيشون على صلة مباشرة بالطبيعة ، ويألفون شظف العيش ــ كان صبورا ، وكان فى امكانه أن يجلس الساعات ، بل الايام الطوال ، دون أن يصيبه الكلل ، أو يفقد زمام أعصابه .. **وقد سمع سيده يناديه مرتين ، الا انه لم يجبه ، لسبب واحد ، هو أنه لم يشعر بالميل الى الحركة ، ولم يجد داعيا لأن يكلف نفسه عناء رفع صوته !** .. ومع أنه كان عند ابتداء رقاده مكتمل الدفء بفعل ما احتساه من أقداح الشاى ، وبفضل المجهود الذى بذله فى كفاح أكوام الثلج ، فانه كان يعلم تمام العلم أن هذا لن يستمر طويلا ، وانه سرعان ما سيفقد قواه ويغدو عاجزا عن تجديد طاقة الدفء لديه بالحركة والنشاط .. **اذ كان يشعر فى تلك اللحظة شعور الجواد الذى توقف عن السير ، وتملكه الاحساس بانه أصبح عاجزا كل العجز عن المضى فى السير ولو خطوة أخرى ، بالرغم من السياط القاسية التى تنهال عليه .. مؤكدا بذلك لسيده أنه ما من عمل آخر يمكن أن ينتظر منه ، ما لم يأخذ راحته ويتناول طعامه ..**

وفوق ذلك ، كانت احدى قدمى نيكيتا قد تجمدت ، داخل حذائه البالى ، حتى أن اصبعها الاكبر فقد كل احساس .. وغدا جسده كله مثلجا ، وقد راح البرد يتسرب اليه ويزداد قسوة عليه .. حتى لتد بدأت تراوده حينئذ فكرة ملحة بأنه سيموت فى هذه الليلة . ومع ذلك ، فانه لم يشعر ازاء هذه الفكرة بأى انزعاج ، ولا داخله أى خوف : لأن حياته لم تكن راحة مستمرة أو عيدا متواصلا ، بل كانت — على العكس — حياة عبودية دائمة ، وكان قد بدأ يكل ويتعب منها .. ولأنه — فوق كل السادة الذين خدمهم فى حياته ، أمثال فاسيلى اندريتش — كان على الدوام يشعر بخضوعه للسيد الاعظم الذى خلقه وارسله الى هذه الحياة ، وكان يعلم أنه — بعد الموت — سيبقى خادما لهذا السيد ، وأن هذا السيد سيكون رحيما به عطوفا عليه .. فانطلق يفكر قائلا فى نفسه : « هل يساورنى الاسف اذ أترك هذه الحياة التى عرفتها واعتدت عليها ؟.. كلا ، فلا جدوى من الاسف .. وحتى لو كان من المحتم أن أذهب ، فلن أملك فرارا من هذا ، والافضل لى أن أعد نفسى للحياة الجديدة التى تنتظرنى ! »

واسترسل فى تفكيره ، مستعرضا خطاياه ، متذكرا عربدته فى ساعات سكره ، والمال الذى بدده على الخمر ، واهاناته لزوجته ، واغراقه فى الاقسام الكاذبة ، واهماله الذهاب الى الكنيسة ، وعدم مراعاته للايام المقدسة .. وغمغم قائلا : **« لقد كانت تلك خطايا من غير شك .. وما كنت لأنكر هذا فى يوم من الايام .. ولكن أليس الله هو الذى خلقنى هكذا ؟.. ومع ذلك ، فما الذى سيحدث لى بسبب هذه الايام يا ترى ؟ »**

وانتقل فجأة من التفكير فيما عساه يحدث له فى تلك الليلة ، الى التفكير — دون أية مناسبة أو تمهيد — فى خليط

من الذكريات التى تزاحمت على رأسه فى غير رابط أو اتفاق .. فخطرت بباله ذكرى وصول « مارتا » ، ثم صورة العمال وهم يسكرون ، وقد رفض هو مشاطرتهم الشراب .. ثم انتقل به الفكر الى رحلة هذه الليلة ، والى كوخ « تاراس » ، والحديث الذى دار فيه عما يهدد العائلة من فرقة وانقسام .. ثم تمثل ولده الصغير ، و « براونى » الذى كان ينعم — ولا شك — بالدفء ، تحت الفرارة التى تغطى ظهره .. ثم سيده فاسيلى ، الذى كانت العربة تحدث صريرا تحته وهو يقفز ويستدير .. ثم راح يقول لنفسه : « لقد كان أمامى قدر كبير من الشاى لأشربه فى تلك الدار .. وكنت متعبا ، وما كنت راغبا فى أن أترك مثل تلك الحياة الطيبة ، لكى آتى واموت فى هذه الحفرة .. ومع ذلك فقد أراد هو غير ذلك ! »

وقد طافت بمخيلته كل هذه الذكريات فى وقت واحد ، واختلطت فى رأسه ، ثم راح فى غفوة . وأيقظه فاسيلى منها ، حين هز العربة — وهو يحاول امتطاء الجواد — هزا عنيفا حتى لقد استدارت ، وصدمت نيكيتا فى ظهره باحدى عجلاتها وبذلك اضطرته كارها لأن يغير وضعه .. فمد قدميه بشىء من الصعوبة ، ونفض عنهما الثلج ، ثم نهض قليلا . وحينئذ شعر بألم شديد فى جسده .. **وإذ أدرك — لأول وهلة — ما اعتزم فاسيلى أن يفعله ، رجاه أن يترك له الفرارة التى تغطى ظهر الجواد ، فلن يعود هذا فى حاجة اليها ، فى حين أن فى امكانه هو أن ينتفع بها .. وراح يصيح ملحا على فاسيلى ليعطيه أياها ، الا ان هذا اختفى تحت وابل الثلج دون أن يكترث به !..** فلما وجد نيكيتا أنه أصبح وحيدا ، راح يفكر فيما يحسن به أن يفعله . وشعر بأنه لم تعد لديه القوة الكافية لأن يقوم باحثا عن منزل يقضى فيه ليلته ، فى حين أصبح مستحيلا عليه أن يستعيد المكان الذى كان راقدا فيه ،

اذ كان الثلج قد غطاه واخفى معالمه .. وحتى لو انتقل الى داخل العربة ، فقد لا تتحسن الحال ، اذ لم يكن لديه الكفاية من الاغطية ، ولم تعد سترته ولا دثارة الفرو كافيين لتدفئته ..

واحس انه يعانى سكرات الموت ، فصاح هاتفا : « يا أبانا الحبيب .. يا أبانا الذى فى السموات ! » .. وشعر فى هذه اللحظة بأنه لم يكن وحيدا ، وانما كان الله معه ، يسمعه ولن يتخلى عنه ، فأحس بالراحة تتسرب الى نفسه ، وزحف الى داخل العربة والمئزر ما يزال مغطيا رأسه ، واستلقى حيث كان سيده نائما .. الا انه لم يستشعر الدفء فى ذلك المكان ، فراح — فى مبدأ الامر — يرتجف ، ثم ما لبث أن بدأ يفقد وعيه . فاستسلم ، وقد سيطر عليه الاحساس بأنه يموت أو يستغرق فى النوم .. فأعد نفسه لكل من الحالتين !

— ٨ —

• كان فاسيلى يستعمل كعبى حذاءيه والطرف الفائض من الرسن ، ليحث الجواد على الاسراع فى الاتجاه الذى حدس — لسبب أو لآخر — أن تكون الغابة وحارسها فيه . وراح الثلج يعمى عينيه ، والريح تهاجمه وكأنها تكافحه وتصده كى توقفه .. الا انه ظل يستحث الجواد ، وهو لا يفتأ ينحنى الى الامام ليطوى أطراف ثوبه ويثنيها ، فيما بين ركبتيه والسرج المجلل بالثلج .. وكان الجواد — بينذاك — يتحرك بمشقة ، ولكنه كان وديعا ، ذلولا بطبعه ، فمضى يبذل كل جهده فى التقدم نحو الاتجاه الذى يقوده اليه سيده .

وظل فاسيلى — فترة بدا له أنها خمس دقائق — متجها الى الامام ، دون أن يكون فى مقدوره أن يبصر الا رأس الجواد وأذنيه ، وبحرا من الثلج الابيض .. ودون أن يسمع غير

صفير الريح وهى تمرق بين اذنى جواده وحـــول ياقة ثوبه الفرو .. وما لبث ان لاح شيء اسود امام عينيه فجأة ، نبدأ قلبه يخفق بالامل ، واتجه نحوه ، وقد خيل اليه انه أبصر — فعلا — فى معالمه جدران بيوت تتألف منها قرية .. الا ان ما رآه لم يكن ثابتا أمام ناظره ، وأنما كان دائم الحركة والتأرجح من جانب لآخر .. وما لبث ان تغيرت هيــاته ، فاذا به دغل مستطيل من « الافسنتين » ، الذى نبتت أعواده على حرف أخدود ، وبرزت فوق مستوى الثلج ، والـــريح تلطمها بعنف فتميلها وتمرق مولولة بينها .

فما تحقق فاسيلى من ذلك حتى تولته رجفة ، وانهال على الجواد يدفعه ويحثه على العدو ، دون أن يفطن الى انه قـــد حاد عن اتجاهه السابق ، وسار فى طريق ينحرف عنـــــه ، وهو يظن انه ما زال ماضيا فيما يتوهم أنه الاتجاه نحو كوخ حارس الغابة .. وعلى الرغم من ان الجواد ظل يحـاول أن يحيد الى اليمين ، فانه ما لبث ان اتجه — مرة أخرى — نحو اليسار . وللمرة الثانية ، لاح شيء قاتم أمام فاسيلى ، فملأ قلبه بالفرح ، اذ أحس — فى هذه المرة — احساســا محققا ، بأن ثمة قرية سوف يصل اليها اخيرا .. الا أنـــه ما لبث أن اتضح له أن ذلك الشيء لم يكن — هو الآخــــر — الا حرف اخدود اكتست قمته بالافسنتين ، والريح — كما رأى فى المرة السالفة — تولول بين أعواده الجافة ، فامتلأ قلبه بالرعب .

وكان هذا الدغل من الافسنتين يشـــــبه الدغل الاول فى كل شيء ، الا شيئا واحدا .. هو انه كانت ثمة آثار خفيفة على الثلج ، لحوافر جواد بجوار الدغل الثانى .. واسرع فاسيلى فانحنى الى الامام ، وأمعن النظـــر فى تلك الآثار ، فتبين له أنها آثار حوافر صغيرة الحجم ، وان رذاذ الثلج الذى يغطيها كان خفيفا جدا .. وباختصار ، كانت آثار جواده ذاته !..

واذن فقد أتم فى سيره دائرة كاملة !

وغمغم قائلا :«لقد هلكت !» ..ولكى لا يستسلم لفزعه ، راح – مرة أخرى – يدفع جواده فى عنف ، حاثا اياه على الاسراع ، وهو ما يفتأ – بين لحظة واخرى – يحدق بعينيه خلال عباب الثلج الابيض ، الذى كان يموج أمامه . وما لبث أن خيل اليه انه يبصر بقعا سوداء تلوح له ، حتى اذا أمعن النظر فيها ، اذا بها تتلاشى وتختفى .. ثم خيل اليه بعد ذلك أنه سمع صوتا حسبه نباح كلب أو عواء ذئب ، الا ان الصوت كان شديد الخفوت حتى أنه لم يستطع أن يتأكد مما اذا كان حقا قد سمع صوتا ، أو كان ذلك مجرد وهم منه . فتوقف عن السير وأرهف سمعه .

وفجأة ، دوت فى أذنيه صرخة غريبة مفزعة ، وخيل اليه أن كل شىء يضطرب ويرتعد من تحته . فتشبث بناصية الجواد ، وان كان قد وجدها هى الاخرى ترتعد ، فى حين أن الصرخة راحت تزداد حدة ونفاذا .. ولبضع لحظات لم يتسن لفاسيلى أن يكون فكرة عن حقيقة الامر .. كل ما حدث هو أن الجواد سيطرت عليه فكرة أن يرفع من حالته المعنوية ، أو أن يصيح فى طلب النجدة ، فصهل صهيلا مرتفعا بصوت الاجش . فما تبين فاسيلى ذلك ، حتى استرد انفاسه ، وقال لاهثا : « لقد أفزعنى الجواد ، عليه لعنة الله ! » . الا انه – برغم ادراكه حقيقة الامر الذى أفزعه – لم يستطع أن يخلص نفسه مما سيطر عليه من الفزع ، فقال فى نفسه : « يجب أن أفكر بعض الوقت فى هدوء وان ادخل الطمأنينة الى نفسى » .. ولكنه – على الرغم مما بذل من الجهد – لم يصل الى أى نتيجة ، اذ فشل فى السيطرة على نفسه ، ولم يستطع أن يتوقف عن دفع الجواد دفعا عنيفا ، وحثه على الاسراع ، غير منتبه الى انه أصبح الآن يسير فى

اتجاه الريح ، بعد أن يسير فى الاتجاه المضاد لها .. وكان جسده يرتعد وينبض كله بالالم ، لا سيما نصفه الاسفل الملاصق للسرج ، حيث كان رداؤه غير محكم .. فى حين كانت يداه وقدماه ترتجف بعنف . وكانت انفاسه تخرج فى لهاث ، وقد شعر الآن شعورا مؤكدا بانه هالك لا محالة فى خضم ذلك الطوفان المخيف من الثلج ، وانه ما من شىء ينقذه .

***

وفجأة صدرت من الجواد أنة عالية ، اذ اصطدم فى كومة من الثلج ، ثم ما لبث — وهو يحاول ان يتخلص منها — أن غاص حتى خاصرته فى لجتها .. فقفز فاسيلى من فوقه ، وأزاح — وهو يفعل ذلك — حلقات الركاب التى كانت قدماه متشبثين بها ، والسرج الذى كان جالسا عليه ، فما استقر على الارض حتى بادر الجواد الى تصحيح الاتجاه لنفسه ، وغطس فى كومة الثلج غطسة ، ثم اخرى ، ثم اختفى وهو يصهل صهيلا مرتفعا ،وقد جر خلفه الفرارة وعدة السرج ، وترك فاسيلى واقفا تحت وابل الثلج .. فما رآه هذا يبتعد عنه ، حتى أسرع خلفه يحاول أن يمسك به ، الا أن الثلج كان شديد العمق ، فى حين كان ثوبه الفرو ثقيلا جدا . ومن ثم فقد راحت قدماه تغوصان حتى ركبتيه . فما تقدم عشرين خطوة ، حتى كانت أنفاسه قد تقطعت ، ولم يجد بدا من أن يتوقف عن السير .

وحينئذ راح يفكر فى نفسه قائلا : « أخشابى ، وكباشى التى أعدها للجزار ، والارض التى أؤجرها ، والحانوت ، والفندق ، والدار ذات السطح الحديدى ، والمستودع .. هل اترك هذا كله ؟.. وولدى الصغير هل اتركه ؟.. هل

ينتهى بى الامر هكذا ؟ كلا ، كلا .. لا يمكن ان يكون هذا ! »

ولأمر ما ، تراءت أمامه ــ فى تلك اللحظة ــ صورة دغل « الأفسنتين » ، وهو يميل تحت وطأة الريح . ولاحت فى مخيلته صورته هو ذاته ، وهو يسير نحو ذلك الدغل مرتين .. وقد سيطر عليه خوف عظيم ، حتى لقد وجد مشقة عظيمة فى أن يصدق ما حدث . وراح يقول لنفسه : « لا بد أن يكون كل هذا حلم ! » .. واذ استقر فى ذهنه هذا الوهم ، حاول أن يفيق من حلمه المزعوم .. الا انه لم يقدر له أن يفيق .. فقد كان ثلج حقيقى ذلك الذى راح يصفع وجهه ، ويتراكم على كل جسده ، ويجعل يده ــ التى فقد قفازها ــ ترتعد .. وقد كان قفر حقيقى ذلك الذى ألفى نفسه فيه وحيدا ، والذى كان عليه أن ينتظر فيه موتا سريعا لا نجاة له منه .. فصرخ قائلا : « يا ملكة السماء !.. يا أبانا القديس نيكولا ، يامن علمتنا الصبروالاحتمال ! » .. ثم طافت بمخيلته صورة باهتة لصلاة الشكر التى أقيمت بالأمس ، ولأيقونة القديس بوجهه الأسمر وثوبه الذهبى ، وللشموع التى اشتراها وأوقدها أمام الأيقونة لحظة ، ثم استردها واحتفظ بها ..

وراح يتضرع الى القديس صانع العجائب أن ينقذه من مصيره الرهيب ، واعدا اياه فى مقابل ذلك بأن يرفع اليه صلاة شكر وأن يوقد أمام أيقونته عددا كبيرا من الشموع .. ومع ذلك فقد كان الشك يمزق قلبه ، موقنا أن هذا القديس بوجهه الأسمر ، وثوبه الذهبى ، والشموع المضاءة ، وصلوات الشكر المرفوعة ، والكاهن الذى يقف فى الهيكل ، برغم ما كان لهم فى الكنيسة من مقام عظيم ومكانة مرموقة ، الا انهم لم يكونوا يملكون ــ فى هذا القفر ــ أن يصنعوا من أجله شيئا .. واحس ــ فى هذه اللحظة ــ بأنه

لا ارتباط على الاطلاق بين الشموع وصلوات الشكر ، وبين ما هو فيه من محنة قاسية .. ومع ذلك فقد راح يغمغم قائلا فى نفسه : « كلا ، لا ينبغى أن أيأس أبدا .. وما على الا أن أتبع آثار الجواد قبل أن يغطيها الثلج ويمحو معالمها ، ولابد أنها ستقودنى الى مكان ما » .. ولم يسعه الا الاسراع بدرجة تقترب من الجرى ، وهو لا يفتأ يتبين آثار حوافر الجواد بين أكوام الثلج ، فعض - آخر الأمر - على شفته وهو يئن قائلا : « لقد ضعت ! »

وما كاد يتم قوله هذا ، حتى وقع بصره على شىء قاتم أمامه .. وكان هذا الشىء هو « براونى » ! .. ولم يكن « براونى » وحده ، بل كذلك عريش العربة ، والمنديل كذلك .. فقد كان الجواد واقفا بجوار العربة ، وسرجه ما زال متدليا تحت خاصرته .. الا انه كان - فى هذه المرة - فى وضع يختلف عن وضعه السابق ، اذ كان واقفا تحت العريش مباشرة ، ورأسه - الذى كان لا يفتأ يهزه بين لحظة وأخرى - مشدود نحو الأرض تحت وطأة الرسن الذى التف حول رسغه .. **وتبين فاسيلى أنه غاص فى ذات الخندق الذى كان يرقد فيه نيكيتا ، وأن الجواد كان يتجه به نحو موضع العربة ، وأنه - فى اللحظة التى قفز فيها من فوقه - كان على خمسين خطوة فقط منها !**

- ٩ -

• **تقدم** فاسيلى نحو العربة ، واستند اليها ، ثم وقف طويلا دون حراك ، وهو يحاول أن يدخل السكينة الى نفسه ، ويسترد أنفاسه . ولم يكن ثمة ما يمكن رؤيته من « نيكيتا » ، فى موضعه الأول الذى كان فيه . على أنه كان ثمة شىء ممدد فى داخل العربة ، يغمره الثلج . وقد حدس

فاسيلى أن هذا هو خادمه ، فزالت المخاوف عنه ، وان ظل الفزع كامنا فى قلبه من عودة المحنة المرعبة التى قاساها وهو على ظهر الجواد ، لاسيما حين ألفى نفسه وحيدا فى ذلك البلقع الذى تتلاطم فيه أمواج الثلج . **وفكر فى نفسه قائلا ان هذا الفزع لاينبغى أن يعود مهما يكلفه الأمر . ومن أجل ذلك ، كان عليه أن يشغل أفكاره بأى شىء ..** فنصب قامته معطيا ظهره للريح . وفك أزرار ثوبه الفرو ، حتى اذا هدأ وانتظمت أنفاسه بعض الشىء ، راح ينفض الثلج عن حذاءيه وعن قفاز يده اليسرى ، اذ كان قفاز اليمين قد ضاع .. وشد حزامه على خاصرته شدا وثيقا .. ثم راح — بعد ذلك — يحاول أن يشغل نفسه فى شىء ما . وكان أول ما خطر بباله ان يفعله ، هو أن يطلق قدم الجواد من الرسن العالق بها . حتى اذا انتهى من ذلك ، ربط الجواد فى حرف اللوحة الأمامية للعربة ، حيث كان مربوطا من قبل . واذ استدار ليسوى حزام الذيل ، ويضبط وضع الفرارة والسرج على ظهره ، أبصر شيئا ما يتحرك فى العربة ، ثم وقعت عينه على رأس نيكيتا تبرز من تحت الثلج الذى كان يغطيه . وكان يحاول — وقد تجمد من الصقيع — أن ينهض قليلا ، وقد أتى باشارة غريبة بيده ، ملوحا بها أمام وجهه كأنما يهش ذبابة .. واذ فعل ذلك بدا لفاسيلى أنه يقول شيئا .. وخيل اليه أنه ينطق باسم « فاسيلى » ، فترك الفرارة غير معتدلة ، واقترب من العربة ، وسأله قائلا : « كيف حالك الآن ؟.. ماذا تحاول ان تقول ؟ » . **فأجاب نيكيتا بصعوبة وهو يلهث ، قائلا بكلمات متقطعة : « فقط اننى .. اننى أموت .. أعط أجرتى للصبى ، أو الزوجة سيان ! »** .. فسأله فاسيلى قائلا : « أنت اذن تجمدت .. البرد ؟ » . فأجابه نيكيتا بصوت مختنق : « نعم .. من وأنا

أموت .. أنا أعلم ذلك ! » . وصمت قليلا ، ثم استرسل قائلا وهو ما يزال يلوح بيده أمام وجهه كأنما يهش ذبابة : « سامحنى من اجل المسيح ! »

وعندئذ وقف فاسيلى نحو نصف دقيقة دون أن يبدى حركة أو ينطق حرفا ، ثم تحفز فجأة ، وبنفس الأسلوب الحاسم - الذى اعتاد أن يتبعه حين كان يضع يده على صفقة مكسبة - خطا خطوة الى الخلف ، وثنى أكمام ردائه ، وراح يجرف الثلج بكلتى يديه من فوق نيكيتا ومن داخل العربة . حتى اذا انتهى من ذلك ، فك حزامه ، وفتح ثوبه الفرو ، ثم سحب نيكيتا - جاعلا اياه فى وضع مستقيم - وتمدد فوقه بحيث غطاه تماما ، لا بثوبه فحسب ، وانما بذات جسده الدافىء الحار .. وقد حسر أطراف ردائه - بين جسد نيكيتا وجدار العربة - وشدذيل سترته بين كاحليه ، وظل هكذا منبطحا ، ورأسه مسندا الى اللوحة الأمامية للعربة ، وأذناه مغلقتين لا تسمعان حركات الجواد ولا ولولة الريح ، اذ وضع كل انتباهه فى الانصات الى تنفس نيكيتا .. وقد ظل نيكيتا مدة طويلة ، لا تصدر عنه أى حركة ولا نأمة . ثم ندت عنه أنة عميقة ، وتحرك حركة واهنة . فقال له فاسيلى : « ها أنت حى ، فكيف تتكلم - مع ذلك - عن الموت ؟.. ما عليك الا أن تنام فى هدوء ، وأن تدفأ شيئا فشيئا . ونحن .. »

الا أنه لدهشته العظمى ، وجد نفسه عاجزا عن أن يقول من ذلك ، وقد راحت الدموع تهطل من عينيه ، وفكه يرتعد .. فتوقف لحظة ، وازدرد قطعة من الثلج فى فمه ، وفكر فى نفسه قائلا : « لقد استضعفت أعصابى بدرجة سخيفة ! » . الا أنه - مع اضطرابه - لم يستشعر فى هذا الضعف اى ألم ، بل - على

العكس - شعر بسعادة لم يشعر بمثلها على الاطلاق من قبل .. فقال لنفسه ، وقد سيطر عليه انفعال عنيف : « نعم . سوف ندبر الأمر على أحسن وجه ! » .. ثم استلقى - بعد ذلك - وقتا طويلا فى سكون ، وهو لا يفعل شيئا الا أن يمسح عينيه فى فراء ثوبه ويثنى طرف كمه الأيمن الذى كانت الريح تطيح به بين لحظة وأخرى . الا أنه شعر أخيرا بانه بحاجة الى من يشاركه فى فرحه ، فنادى خادمه الراقد تحته قائلا : ((نيكيتا !)) .. فجاءه الصوت من تحته مغمغما : ((اننى الآن أحسن .. لقد تدفأت !)) .. فأجابه قائلا : ((نيكيتا ، يا صديقى ، لابد أنك تجمدت من البرد . وأنا .. !))

ومرة أخرى ، راحت وجنتا فاسيلى تختلجان ، وامتلأت عيناه بالدموع ، حتى عجز عن أن يقول شيئا آخر .. ففكر قائلا فى نفسه : « كلا ، ان الأمر فى غاية السوء .. برغم أنى أعلم ما أعلم .. » . ثم بقى ساكتا .. وظل راقدا هناك . وبدا له أن الدفء ينتقل اليه من نيكيتا الراقد تحته ، ومن ثوب الفراء الذى فوقه .. الا أن يديه - اللتين كان ممسكا بهما أطراف ثوبه ، وهو يطويه حول نيكيتا ، وقدميه اللتين - كانتا معرضتين لهبوب الريح ، فبدأ يشعر بهما مثلجتين ، بل ان يده اليمنى - التى كانت بغير قفاز - أصبحت مخدرة .. ومع ذلك ، فانه لم يفكر قط فى يديه او قدميه ، وانما انحصر كل تفكيره فى الكيفية التى يبعث بها الدفء فى جسد الخادم الذى كان نائما تحته .

***

وأدار عينيه اكثر من مرة ناحية الجواد ، وابصره وقد انكشف ظهره ، اذ كانت الفرارة قد سقطت عنه ، واستقرت

فوق الثلج .. وشعر أن من الواجب عليه أن يقوم ويعيد وضع الفرارة فوقه ، الا أنه لم يشأ أن يترك نيكيتا لحظة واحدة ، فيفقد بذلك شعور الفرح العجيب الذى كان مسيطرا فى هذه اللحظة عليه .. أما مخاوفه ، فقد ذهبت كلها عنه . وحينئذ قال لنفسه مزهوا بالجهد الذى يبذله لتدفئة نيكيتا : « وحق السماء ، لن أغلب على أمرى ! » .. قال ذلك بذات نغمة الخيلاء التى اعتاد أن يتكلم بها عن صفقاته ، ومبيعاته ومشترواته .

وظل راقدا هكذا ساعة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة .. الا أنه لم يشعر بمرور الوقت . وتراقصت ــ فى مبدأ الأمر ــ أمام بصره صور غامضة للعاصفة ، ولعريش العربة ، وللجواد تحت سرجه المرتفع .. ثم تلاشت هذه الصور ، وحلت محلها ذكريات ــ مختلطة بعضها بالبعض الآخر ــ عن العيد ، وزوجته ، والمأمور ، وصندوق الشموع . ولكنه تمثل ــ تحت صندوق الشموع ــ نيكيتا راقدا !

وما لبث أن تعاقبت أمامه صور الفلاحين وهم يتعاملون معه ، والجدران البيضاء لمنزله ذى الأسقف الحديدية .. ومرة أخرى ، تمثل تحت صورة هذه الجدران نيكيتا راقدا !.. ثم اختلط كل شىء ، وتداخل كل شىء فى غيره من الأشياء ، حتى بدت الصور أمام ناظره كألوان قوس قزح ، وقد غاص فى لجة من النور الأبيض .. ثم استغرق فاسيلى فى النوم .. ونام وقتا طويلا بغير أحلام ؛ الا أنه ــ قبل الفجر ــ لاحت له بعض رؤى النوم ، فتمثل نفسه واقفا عند صندوق الشموع . وكانت الأم « تيخونوفا » تطلب منه شمعة بخمسة كوبيكات لتوقدها فى العيد ، فحاول أن يأخذ الشمعة من الصندوق ويعطيها اياها ، الا ان يديه ظلتا ملتصقتين فى جيبى سترته ..

ثم حاول أن يسير الى الناحية الأخرى من الصندوق ، الا أن قدميه رفضتا أى حركة .. وفجأة ، لم يعد الصندوق صندوقا على الاطلاق ، وانما انقلب الى فراش .. وفوق ذلك الفراش ، رأى فاسيلى نفسه راقدا ووجهه الى أسفل . وخيل اليه أن ذلك الفراش هو فراشه الذى بالمنزل ، وأنه راقد عليه ، وليس بوسعه أن ينهض .. مع انه كان يشعر بضرورة ذلك ، اذ أن المأمور « ايفان ماتفيتش » ، كان آتيا ليقابله ، كما كان عليه أن يذهب مع ايفان لشراء بعض الأخشاب ، أو لأمر آخر لايدرى ما هو.. وقد ظل يسأل زوجته قائلا : « ألم يأت بعد ، يا ميكولوفنا ؟ » .. وظلت هى تجيبه : « كلا . لما يأت بعد ! » . ثم أمكنه أن يسمع صوت عربة بالخارج .. فلاشك انه هو .. ولكن العربة مرت ولم تقف .. فسأل زوجته مرة أخرى ، قائلا : « الم يأت بعد ؟ » . ومرة أخرى ، اجابته قائلة : « كلا . لم يأت بعد ! »

وهكذا ظل نائما على الفراش ، غير قادر على النهوض ، وظل ينتظر وينتظر .. وكان الانتظار — فى ذات الوقت — مؤلما ومفرحا ..

وفجأة ، بلغ مافيه من الفرح ذروته : فقد جاء من كان ينتظره .. ولكنه لم يكن ايفان ماتفيتش ، ولم يكن أى شخص آخر .. ومع ذلك فقد كان هو الذى ينتظره .. وقد دخل ذلك الرجل ، وناداه .. واهاب به — مرة أخرى — أن يذهب ويرقد فوق نيكيتا .. وكان فاسيلى مسرورا بأن هذا الرجل قد جاء ، فصاح فى غمرة فرحه : « نعم . سأذهب ! » .. الا أن هذه الصيحة ايقظته .

نعم . لقد استيقظ .. الا أنه استيقظ رجلا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك الذى كانه حين استغرق فى النوم ..

وقد حاول أن ينهض فلم يستطيع .. حاول أن يحرك يده ، فلم يستطع .. حاول أن يحرك قدمه ، فلم يستطع .. ثم حاول أن يدير رأسه ، الا أنه عجز عن هـذا أيضا .. وقد أثار ذلك دهشته ، ولـكنه لم يسبب له أى انزعاج أو اضطراب .. وفى هذه اللحظة ، تذكر أن نيكيتا يرقد تحته، وأن نيكيتا يزداد دفئا ، وأنه يعود الى الحيـاة .. **وقد خيل اليه أنه هو نيكيتا ، وأن نيكيتا هو ، وأن حياته لم تعد فى داخله ، وانما فى داخل نيكيتا .. وقد أرهف أذنيه حتى أمكنه أن يسـمع صـوت تنفس .. نعم . كان ذلك هـو التنفس الواهن العميق الذى يصدر عن نيكيتا** . فصاح فى نفسه فى انتصار : « نيكيتا حى .. وكذلك أنا حى ! » .. ثم بدأ يـفكر فى أمواله ، ومتجره ، ومنزله ، ومبيعـاته ومشترواته ، وملايين ميرونوف .. ثم لم يستطع أن يفهم كيف أن ذلك الرجل ـ الـذى يسـميه النـاس فاسيلى بريخونوف ـ يجد سروره فى مثل هـذه الأشياء .. وراح يقول فى نفسه : « ان هـذا الرجل الـذى يدعى فاسيلى بريخونوف لايمكن ان يكون قد عرف ما هـو أعظم الأشياء على الاطلاق .. لايمكن أن يكون قد عرف ما أعرفه أنا .. نعم ، اننى أعرف ذلك معـرفة اكيدة الآن .. أخـيرا ، أنا أعرف !! »

ومرة أخرى ، سمع الرجل يناديه .. ذات الرجل الذى كان يناديه من قبل .. وكان كيانه كله غارقا فى السعادة وحنان الحب ، حين أجاب قائلا : « أنا آت ، أنا آت ! » .. وقد شعر حينئذ أنه ـ أخيرا ـ أصبح طليقا ، وانه ما من شىء يمكنه أن يقيده بعد ذلك . وبالفعل ، فان شيئا آخر غير هذا لم يره أو يسمعه أو يحسه فاسيلى أندريتش فى هذا العالم .

وكانت العاصفة تدوى من حوله ، ودوامات الثلج تدور فى طيات الأعاصير وتغطى أردية فاسيلى أندريتش ، الذى كان قد أصبح جثة هامدة ، والجواد الذى كان يرتجف ، والعربة التى كان قد اختفى معظمها الآن .. وقد تمدد فى داخلها نيكيتا وقد ارتدت اليه الحياة ، وهو مستلق تحت جثة سيده ، الذى كان قد مات !

- ١٠ -

• استيقظ نيكيتا قبيل بزوغ الفجر ، وكان الذى أيقظه هو الصقيع الذى تسرب تحت ظهره .. وكان يحلم بأنه خارج من الطاحونة بحمل من الدقيق يخص سيده ، وبدلا من أن يتخذ طريق الجسر المار فوق الترعة ، خاض الماء خوضا .. وفى القاع ، التصقت قدماه التصاقا شديدا ، فلم يتمكن من نقلهما خطوة واحدة . وألفى نفسه - وقد ناء بحمله - وهو يحاول أن يرفعه ، ويجتهد فى أن ينصب ظهره .. الا أن الحمل مع ذلك لم يتحرك - لدهشته - وانما لصق بظهره ، فلم يستطع أن يحركه أو ينسحب من تحته .. وشعر أنه يوشك أن يكسر حقويه ، وأنه شديد البرودة ، حتى لقد أثلج ظهره .. وراح يفكر فى أنه ينبغى بأى ثمن أن يخرج من تحته . ووجد نفسه يصرخ قائلا : « قف مكانك ! » ، للشخص الذى كان يتسبب فى أن يكسر الحمل ظهره . ومع ذلك ، فقد ظل الحمل يزداد برودة أكثر فأكثر .. وفجأة ، سمع شيئا ما يفرقع فرقعة عالية ، فاستيقظ يقظة تامة وتذكر ما حدث .. كان ذلك الحمل المثلج هو سيده الميت المتجمد من البرد .. وتلك الفرقعة العالية ، كان سببها « براونى » ، وقد راح يضرب حوافره فى العربة !

وصاح نيكيتا مناديا سيده : « أندريتش .. أندريتش! » وان كان قد ادرك الحقيقة بالفعل نصف ادراك . وراح يحاول أن يرفع ظهره بمشقة .. الا أن أندريتش لم يحر جوابا ، وقد كان جسده باردا ومتصلبا وثقيلا كالحديد .. ففكر نيكيتا فى نفسه قائلا : « لاشك انه مات ! » . وأدار رأسه ، وأزاح الثلج عن وجهه ، وفتح عينيه .. وكان الضوء قد غدا ساطعا ، والريح لاتزال تدوى بين ذراعى عرش العربة ، ووابل الثلج يتساقط كما كان .. الا أنه لم يعد يلطم جنبات العربة ، وانما راح ينزلق فى سكون فوقها وفوق الجواد . **وكان الأخير متجمدا ، ولم يعد يسمع منه حتى صوت تنفسه .. ففكر نيكيتا فى نفسه مرة أخرى قائلا : « لابد أن براونى تجمد هو الآخر ! » .. ولاشك أن تلكما الخبطتين العاليتين على العربة ، اللتين أيقظتاه ، كانتا آخر جهد بذله الجواد ـ الذى أصبح الآن ميتا متجمدا ـ كى يظل واقفا على قدميه .**

وحينئذ هتف نيكيتا قائلا : « يا الهى ، يا أبانا الحبيب الذى فى السموات ، لابد أنك ستدعونى أنا أيضا .. فان كان كذلك ، فلتكن مشيئتك ، فلسوف يكون قاسيا أن يؤخذ اثنان منا ، وأن يترك الثالث .. فليأت الموت حين يشاء ! » . وسحب يده مرة أخرى ، واغلق عينيه واستغرق فى النوم ، مقتنعا تمام الاقتناع بأنه ـ فى هذه المرة ـ قد مات حقا !

***

وحوالى الظهر فى اليوم التالى ، جاء بعض الفلاحين وحفروا فى الثلج ، ليخرجوا فاسيلى ونيكيتا ، على بعد سبعين ياردة فقط من الطريق ، وعلى مسيرة فرسخ من

القرية .. وكان الثلج قد تراكم فوق العربة حتى غطاها تماما ، الا أن العريش ـ ومن فوقه المنديل ـ ظلا ظاهرين .. أما « براونى » ـ وكان قد دفن الى خاصرته فى الثلج ـ فقد بدا ككتلة متجمدة ، وفمه ـ من أثر الموت ـ مزموم بشدة ، ورقبته متصلبة ، وخياشيمه مجللة بقطع الجليد ، وعيناه مغلقتان بالثلج ، وقد هطل منهما ذوبه كأنه الدموع المتجمدة .. وقد ضمر ضمورا مروعا فى تلك الليلة الواحدة ، حتى لم يبق منه غير جلد وعظام .

أما فاسيلى فقد كان كذلك متيبسا كجيفة جافة . وحينما سحبوه من قدميه تدحرجت جثته من فوق نيكيتا ، ككتلة صلبة .. وكانت عيناه جاحظتين ، وفمه المفتوح قليلا تحت شاربه المتهدل ، كان ممتلئا بالثلج .

ولم يوجد حيا غير نيكيتا ، وان كان قد تجمد ـ بفعل الصقيع ـ من راسه الى قدميه .. الا أنه ، حينما استرد وعيه ، لم يقتنع بأنه لم يمت ، وان كل ما كان يحدث له ، لم يكن فى العالم الآخر .. **وكان شعوره الأول ـ حين سمع صياح الفلاحين فوقه ـ وهم يحفرون لاخراج العربة ، ثم وهم يدحرجون فاسيلى المتصلب من فوقه ، أن هذا الصياح انما يصدر عنهم فى العالم الآخر ، وان كانوا يصيحون فى هذا العالم ، ولهم أجساد هذه الدنيا !**

فلما أدرك أخيرا أنه فى هذا العالم حقا ، شعر بالكدر أكثر مما شعر بالسرور ، لاسيما اذ أحس بأن أصابع يديه كلتيهما متجمدة .

وقد ظل راقدا فى المستشفى زهاء شهرين ، حيث وجدوا أنه لابد من بتر ثلاثة من أصابعه .. الا أن باقى الأصابع شفيت ، فأمكنه أن يواصل العمل ثانية ، وأن يعيش عشرين سنة أخرى .. واشتغل ـ فى مبدأ الأمر ـ عاملا ، حتى اذا

تقدم فى السن ، عمل خفيرا .. ولم يمت الا هـذا العام ، وقد مات فى بيتـه ، تحت ايقـونات القـديسين ، وشـمعة مضاءة فى يده ، كما كان على الدوام يتمنى .. وقبل موته ، ودع زوجته العجوز ، وغفر لها علاقتها بصانع البراميل .. كما ودع ولده وأحفاده .. ومات سعيدا أعظم سعادة ، اذ كان يعتقد ان موته سيوفر على ولده وزوجة ولده أحـد الأفواه التى تلتهم الطعام ، وانه فى هذه المرة سينتقل حقـا من تلك الحياة الشـاقة التى ما فتئت متاعبها تزداد على كاهله يوما بعد يوم ، الى الحياة الأخرى التى كان يتضاعف اغراؤها له فى كل عام من الأعـوام ، بل فى كل سـاعة من الساعات .

اتراه الآن فى حـال احسن أم اسوأ ، بعـد انتقاله الى العالم الآخر ؟.. وهل كان ياترى مخدوعا ، أم انه وجـد حقا ما كان يتوقعه ويتوق اليه ؟

لن نلبث أن نعرف ذلك جميعا !

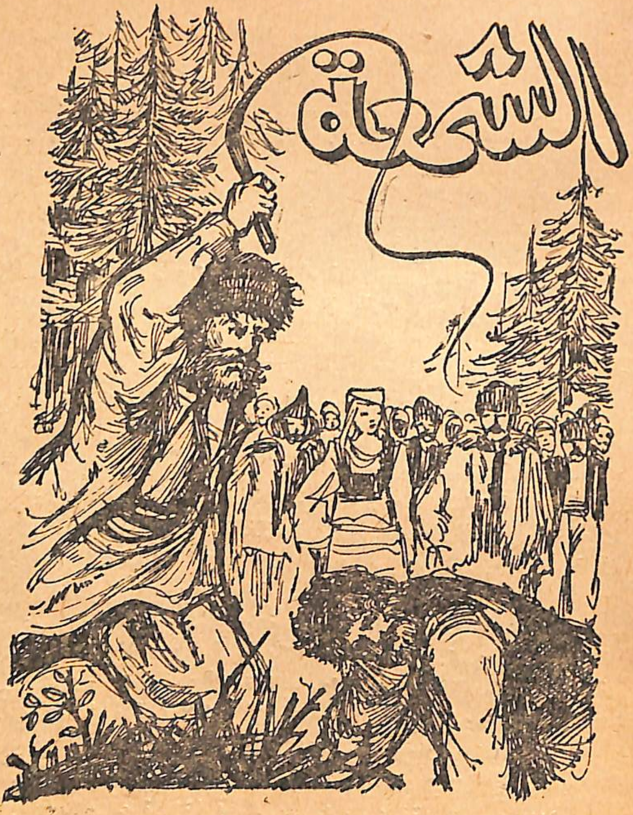

« لقد سمعتم كيف قيل عين بعين وسن بسن .
اما أنا فاقـول لكم لا تصنعوا الشر » .

• **حدث** هذا فى عهـد السادة ، قبل تحرير العبيد عام ١٨٦١ . فقد كان ثمة أنواع مختلفة من السادة : منهم أولئك الذين يتذكرون الله وساعة الموت ، فيبـدون الرحمـة لعبيدهم .. ومنهم آخرون تحجرت قلوبهم ، فهم لا يتذكرون شيئا . **وكان أسوأ هـذا النوع أولئك الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا . وهم رجال ارتفعوا من الوحل كى يشاطروا الأمراء عيشهم . فكانت الحياة تحت رحمتهم أبشع أنواع الحياة !**

وكان من هؤلاء ذلك النـاظر الـذى عين فى ضيعـة شاسعة ، كان فلاحوها يعملون بنظام « البارشينا » وهـو نظام يعمـل الفلاحون بمقتضـاه فى الأرض بضـعة أيام فى الاسبوع بغير أجر . وكانت الضيعة متسعة ، وبديعـة ، تشـتمل على مروج وغابات وعيـون ماء فياضة . وكانت السعادة تشمل المالك والفلاحين على السواء ، حتى حـدث أن عين المالك ذلك العبـد من عبيد أسرته المقيمـة فى اقليم آخر ، ناظرا لهذه الضيعة .

وقد اتخذ هذا الناظر لنفسه مكتبا ، وبدأ يضغط عـلى الفلاحين ضغطا شديدا . **وكان ذا أسرة تتكون من زوجة وبنتين متزوجتين ، وقد تكالب على جمع المال بكل وسيلة صالحة أو شريرة ، لأنه كان طموح النفس وأحمقها فى ذات الوقت .** وقـد بدأ يقسر الفلاحين على زيادة الأيام التى لم يكونوا يتناولون أجرهم فيها ، حسب نظام « البارشينا » . ولما كان قد شرع فى اقامة مصنع طوب ، فقد اجبر الفلاحين على العمـل ـ رجالهم ونساءهم ـ الى حـد الموت ، حتى

يستكثر من الطوب ويجمع المال من بيعه . وقد ذهب بعض الفلاحين الى موسكو ليقدموا شكواهم لمالك الضيعة ، الا ان مسعاهم لم يجد نفعا . فقد أعادهم المالك صفر اليدين، ولم يفعل اى شىء ليكبح جماح النـاظر . وما أن سمع الناظر أن الفلاحين اشتكوا ، حتى شرع ينتقم منهم ، بأن جعل نصيبهم من العمل اليومى أكثر من ذى قبل . فضلا عن أن بعضهم كانوا نمامين ، فراحوا يدسون بعضهم للبعض الآخر عند الناظر ، ويحكى بعضهم الحكايات عن بعض ، فكانت النتيجة أن ازداد الناظر عليهم تجبرا وعتوا .

وما فتىء الحال يزداد سوءا ، حتى أصبح الناظر — فى نهاية الأمر — مخلوقا متوحشا ، شرسا ، مرهوب الجانب من الفلاحين . فأينما ذهب خلال القرية ، كان كل انسان يهرب من طريقه كما يهرب من ذئب مفترس ، ويجتهد بكل ثمن أن يتجنب وقوع عينـه عليه . وكان الناظر يتميز غيظا ، ويحتـدم هياجا اذ يراهم يخافونه هـكذا . وكان يسخر الفلاحين فى العمل ، ويجلدهم . وكم من واحد منهم انبجست جروحـه تحت وقع سـياطه . عـلى ان يأس الفلاحين لم يلبث أن بلغ مبلغه ، فاشتد سخطهم على هـذه الأفعـال الدنيئـة ، وبدأوا يتكلمون فيمـا بينهم . وكانوا يجتمعون معا فى بقعـة منعزلة ، ويقول واحـد من أشدهم جرأة : « حتى متى نصبر على هذا الحيوان المتوحش الذى يحكمنا ؟ الا فلنخمد أنفاسه للأبد .. ليست خطيئـة ولا جرم أن نقتل رجلا كهذا ! »

***

وذات مرة ، صدر الأمر للفلاحين بأن ينظفوا الغابة من أوراق الشجر المتساقطة . وكان ذلك قبيل ابتداء الاسبوع

المقدس . فلما اجتمعوا معا - عنــد منتصف النهــار - ليتناولوا غداءهم ، بدأوا يتكلمون مرة أخرى . وقال قائلهم : « كيف نصبر على هــذه الحال ، وهــذا الرجل يقودنا الى الهلاك ؟.. انه يقسرنا على العمل الى ساعة متأخرة ، حتى لم يعد يتسنى لنا ولا لزوجاتنا الحصول على لحظة راحة أثناء النهــار أو الليل . واذا نحن لم نفعل شيئا لمثله فسيزداد تجبرا ويضربنا .. وها هــو ذا سيمون قد مات من ضربه بالسياط ، « وأنيسيم » يكابد الآلام المبرحة فى المخزن . فماذا ننتظر بعد ذلك ؟.. **ان هذا الحيوان سيأتى هنــا الليلة ، وكل ما يلزمنا أن ننتزعه عن جواده ، ونضربه بالفأس على رأسه ، فينتهى بذلك كل شىء .. ولنأخذ الجثة بعد ذلك الى مكان ما ، فنقطعها ، ونلقى بأطرافها فى المــاء ..** الشىء الوحيد الذى نحتــاج اليه الآن ، هو أن تجمع على الأمر ونكون يدا واحدة ، فلا ينبغى أن تكون هنــاك خيــانة بيننا ! »

وكان « فاسيلى مينابيف » - على الخصوص - ملحا فى ذلك مصمما عليه ، بسبب ضغينة بينه وبين الناظر .. فان هذا الأخير لم يكن يجلده كل أسبوع فحسب ، وانمــا كان يقسر زوجته كذلك على أن تكون طباخة له .

وهكذا راح الفلاحون يتحدثون فيما بينهم . وفى المساء وصل النــاظر ، فما ترجل عن جــواده حتى احتدم غضبا وهياجا ، فان العمــل لم يعجبه . فضــلا عن أنه اكتشف غصنا مدسوسا فى حزمة من حزم الحطب . فوجه القــول الى الفــلاحين قائلا : « الم أقل لــكم الا تقطعوا أشــجار الزيزفون ؟.. فمن فيكم فعل هذا ؟.. قولوا لى ، والا فاننى سأجلدكم جميعا ! » .. وكرر سؤاله عمن كان فى حزمتــه فرع الزيزفون ، فأشاروا الى « سيدور » . فما كان من

الناظر الا أن ضربه بالسوط على وجهه . حتى انبجس الدم منه . وضرب فاسيلى كذلك بسوطه ، لأن كومته كانت صغيرة جدا . وعاد بجواده مرة أخرى .

وفى ذلك المساء تجمع الفلاحون كالعادة ، وقال فاسيلى : « أية مخلوقات انتم ؟.. ما أنتم برجال ، وانما أنتم عصافير .. فانكم ما تفتأون يقول واحد منكم للآخر : « قف مستعدا الآن . قف مستعدا » . حتى اذا حانت اللحظة الحاسمة ، تولاكم الخوف جميعا .. هذا بالذات ما تفعله العصافير حين تتأهب لمقاومة الصقر . فهى ما تفتأ تقول بعضها لبعض : « قف مستعدا الآن . قف مستعدا . ولا يخونن أحدكم الآخر » ، الا أنها حين يحوم الصقر تهرع مذعورة الى أعشاشها ، فيأخذ الصقر من بينها العصفور الذى يروق له ، ويطير به متدليا فى مخالبه ، ثم تقفز العصافير مرة أخرى صائحة : « توت .. توت » . فاذا تبينت أن واحدا منها قد اختفى ، قالت : « من منا ذهب ؟.. أوه ! انه فانيا الصغير . حسنا ، هذا أمر الله وقد ذهب ضحية من أجلنا ! » .. هذه حالكم يا هؤلاء ، اذ تصيحون « لا خيانة . لا خيانة ! » . حينما ضرب هذا الرجل « سيدور » ، كان يجب أن تقتلعوا قلبه ، وتقضوا عليه ولكن ، كلا .. كان كل ما فعلتموه قولكم : « قف مستعدا . استعد ! لا خيانة ! لا خيانة ! » ، فلما حوم الصقر ، انطلق كل منكم يختبىء فى الغابات ! »

وتكلم الفلاحون ، وأسرفوا فى الكلام فى هذا الموضوع ، حتى لقد غدوا آخر الامر مهيأين للقضاء على الناظر .. وقد حدث فى الامسية السابقة على أسبوع الآلام ، أن أرسل اليهم الناظر يأمرهم بالتأهب لحرث الارض واعدادها لزراعة الشوفان . فرأى الفلاحون فى ذلك اهانة وانتهاكا لحرمة أسبوع الآلام ،

واجتمعوا لذلك فى الفناء الخلفى لمنزل فاسيلى ، وراحوا يبحثون الامر قائلين : « اذا كان قد نسى الله ، وقد أصدر أمره الينا بأن نقترف مثل هذه الامور ، فقد بات لزاما علينا ان نقتله !.. فلنفعل ذلك — هذه المرة — من أجلنا جميعا » .

***

وذهبوا بعد ذلك الى « بيتر ميتشيف » ، واجتمعوا به . وكان بيتر رجلا مسالما ، لم يشترك من قبل فى هذه المناقشات ، وقد أنصت اليهم ، ثم قال : « انكم يا اخوانى مقدمون على خطيئة كبرى ، فانكم اذ تأخذون حياة انسان ، ترتكبون جرما شنيعا . من السهل أن تهدروا حياة امرىء ما ، ولكن ما شأن حياتكم أنتم ؟.. اذا كان هذا الرجل يرتكب أمورا شريرة ، فالشر اذن ينتظره . أما أنتم يا اخوانى ، فلستم فى حاجة الا الى الصبر ! »

وثار فاسيلى لهذه الكلمات ، قائلا : « ليس ثمة — فى نظرك أنت — الا اعتبار واحد ، وهو أنه من الخطيئة قتل رجل .. **ان قتل الرجل خطيئة حقا ، ولكن ليس فى هذه الحال التى نحن بصددها .. من الخطيئة قتل رجل فاضل ، ولكن ماذا عن كلب كهذا ؟.. لقد أمرنا الله أن نقتله ، كقتل كلب مجنون من أجل شخص .. بل أننا لو تركنا هذا الشخص يعيش ، لارتكبنا خطيئة أعظم من خطيئتنا اذ نقتله !** .. لماذا هو يمعن فى تحطيم حياتنا ؟.. اننا اذ نقتله انما نفعل ذلك من أجل أبنائنا ، ولسوف يشكروننا من أجل ذلك . ان كلامك فارغ يا ميتشيف . أتكون خطيئة أقل اذن ، أن نذهب ونعمل خلال الاحتفال المقدس بآلام المسيح ؟.. انت نفسك لا تنوى أن تذهب بالتأكيد ! »

وأجاب بيتر قائلا : « لماذا لا اذهب ؟.. اذا صدر لى الامر بأن أحرث ، فسوف أطيع . لن افعل ذلك من أجل نفسى ، والله وحده يعلم لمن تعزى الخطيئة . أما نحن ، فكل ماعلينا هو أن نجعل الله ماثلا فى أذهاننا ونحن نحرث .. **ليست هذه كلماتى يا اخوانى . فلو أن الله أراد أن ندفع الشر بالشر لأعطانا شريعة لذلك ووجهنا اليه كما يوجهنا الى الطريق . لو انكم قاومتم الشر بالشر ، فسوف يرتد شركم اليكم !..** انها لحماقة أن تقتل رجلا ، لأن الدماء تلطخ الروح . خذ روح رجل ، ولسوف تغمس روحك أنت فى الدماء ، ولو كنت تظن أن الرجل الذى قتلته شريرا ، وانك بذلك دفعت الشر عن العالم .. انظروا ، انكم اذ تقتلونه انما ترتكبون شرا أشد نكرا من كل شروره .. استسلموا للبلايا ، وحينئذ تستسلم البلايا لكم ! »

وبعد هذا ، انقسم الفلاحون فى الراى . فبعضهم كان متفقا مع فاسيلى ، وبعضهم الآخر انضم الى بيتر واحترم نصيحته بأن يلزموا الصبر ويمسكوا عن ارتكاب الخطيئة .. فلما كان اليوم الاول من أسبوع الآلام — وهو يوم الاحد — ظل الفلاحون ممتنعين عن العمل ، حتى اذا جاء المساء ، وفد وكيل الناظر مع رجاله من الضيعة وقال لهم : « ان الناظر ميخائيل سيمنوفيتش ، قد أرسلنا لننذركم وننبهكم الى أن تبادروا فى الغد الى حرث الارض واعدادها لزراعة الشوفان » .

وذهب الوكيل ورجاله خلال القرية ، وقالوا للفلاحين ان يذهبوا للحرث فى اليوم التالى : بعضهم على حذاء النهر ، وبعضهم الآخر ابتداء من الأكمة .. ووقع الفلاحون فى غم عظيم ، وان لم يجسروا على عدم الطاعة . وفى اليوم التالى ، ذهبوا فى الموعد المضروب مع دوابهم ، وشرعوا فى الحرث ،

بينما كانت أجراس الكنائس تدق من اجل قداس الصباح .. كان الناس جميعا يراعون حرمة الاحتفال المقدس ، عدا الفلاحين .. فقد كانوا يحرثون !

***

وفى ذلك الصباح ، استيقظ النـــاظر متأخرا من نومه ، وراح يمر على أهل منزله كعادته . وكانوا جميعا قد تأنقوا فى مظهرهم ، ولبسوا أفخر ثيابهم . وكانت العربة تنتظرهم وقد أعدها الخادم لهم ، فركبوها الى الكنيسة . وعنـــد عودتهم أعدت الخادمة لهم الافطار . فلمـــا عاد الناظر من الزراعة ، جلس الجميع لشرب الشاى . واذ انتهوا من ذلك ، أشعل ميخائيل غليونه ، واستدعى الوكيل ، وسأله قائلا : « **هل أرسلت الفلاحين للحرث ؟** »

– نعم يا ميخائيل سيمنوفيتش .

– **ذهبوا جميعا – أليس كذلك ؟**

– نعم ، جميعا .. وقد وزعت العمل بنفسى .

– **حسنا . قد تكون فعلت ذلك . ولكن هل هم يحرثون بالفعل ؟.. هـــذا هو السؤال** .. اذهب وانظر ذلك ، وقل لهم اننى قادم بنفسى بعد تناول الفداء . وقل لهم كذلك ان كل اثنين من الفلاحين يجب ان يحرثا « دســـياتين » وأن يكون الحرث جيـــدا .. لو اننى وجدت أى خطأ ، فلسوف أتصرف طبقا لذلك ، سواء أكان اليوم عيد أو غير عيد !

– حسنا جدا يا ميخائيل سيمنوفيتش .

وكان الوكيل على وشك الذهاب ، حين استدعاه ميخائيل ثانية . وقد استدعاه ثانية ، لأنه أراد ان يقـــول شيئا آخر له ، ولو أنه لم يدر كيف يقوله ، فراح يهمهم بعض الوقت ثم قال أخيرا : « **أريدك ان تنصت كذلك لمـــا يقـــول أولئك**

الاوغاد عنى .. حتى اذا سمعت أى واحد منهم يسبنى ، فتعال وانبئنى بكل ما قال .. اننى أعرف حق المعرفة اولئك اللصوص ، فهم لا يحبون العمـــل . وكل ما يحبـــونه هو الاستلقاء على ظهورهم والرفس بكعوبهم .. البطالة والاجازة .. هذا ما يحبونه . فاذهب وانصت لما يقولون ، واعرف القائلين ، وتعال وقل لى !.. اذهب واعرف كل شىء ، وقله لى ، ولا تخف عنى شيئا .. تلك هى أوامرى لك ! »

وخرج الوكيل مرة أخرى ، فامتطى جواده ، واتجـه الى الفلاحين فى الحقول .

وسمعت زوجة الناظر ما قاله زوجها للوكيـــل ، فجاءت اليه كى تتشفع للفلاحين ، اذ كانت امرأة نبيـــــلة الخلق ، وكان قلبها فاضلا .. وما من فرصة كانت تسنح لهـــا الا انتهزتها لتحاول أن تستدر عطف زوجها على الفلاحين ، أو تدافع امامه عنهم . ولهذه الغاية أقبلت .. فى ذلك اليوم . وقالت له متوسلة : « يا عزيزى ميخائيل ، لا ترتكب هــذه الخطيئة الكبرى ضـــد الاسبوع المقـــدس للرب !.. دع الفلاحين يذهبـــون من أجل خاطر المسيح ! » .. ولـــكن ميخائيل لم يكترث بما قالته ، وضحك منها وقال لها : « هل أصبح السوط الى هذا الحد غريبا عن ظهرك ؟ .. أالى هذا الحد وصلت جرأتك لأن تتدخلى فيما ليس من شأنك ؟ »

ـ ولكنى رأيت ، يا عزيزى ميخائيل ، حلما مزعجا للغاية عنك ، فاستمع لى ، ودع الفلاحين يذهبون !

ـ كل ما عندى لأقـوله لك ، أنك تتجاوزين حـــدودك تجاوزا فاضحا ، وتحتاجين الى ضربة سوط اخـــرى .. خذى هذا !

وفى غضبه ، دفع لهيب الفليون بين شفتيها ، وألقى بها خارج الغرفة ، طالبا ارسال غـــدائه اليه فى غرفته ..

وسرعان ما وضعت أمامه عصيدة الهلام ، والفطاير ، وحساء الكرنب ، ولحم الخنزير المملح ، ولحم الخنزير المقـــدد ، وعجينة الشعيرية .. فالتهمها جميعا ، ورطبهـــا بنبيذ الكريز ، ثم ختم كل ذلك بالفواكه والحلوى . حتى اذا فرغ من ذلك كله ، نادى اليه الطباخة ، وأجلسها الى البيـانو .. لتعزف له ، بينما تنـاول « الجيتار » ، وصاحبها فى العزف ..

***

هكذا كان يمرح ويشرح صدره على رنين الاوتار ، وهـو يداعب الطاهية ، حين عاد الوكيل ، وانحنى امام سـيده ، ثم بدأ يقص ما رآه فى الحقول .. فسأله ميخائيل : « هل هم يحرثون ، كل رجل فى قطعته ؟ » .. فأجـابه الوكيل : « نعم ، وقد حرثوا النصف بالفعل » .

— أليس من تمرد على العمل ؟

— كلا ، لم ار شيئا .. وهم يحرثون حرثا حسنا ، لأنهم خائفون أن يفعلوا غير ذلك .

— وهل الحفر جيد ؟

— نعم . أنه ناعم جدا ، ورفيـــع كحب الخشخاش .

وسكت الناظر برهة ، ثم استطرد قائلا : « حسنا . وماذا يقولون عنى ؟ هل يسبوننى ؟ » .. فتردد الوكيل ، ولكن ميخائيل طاب اليه ان يذكر الحقيقة ، قائلا له : « قل لى كل شىء . انها ليست كلماتك التى ســـتذكرها ، وانما كلماتهم . قل لى الحقيقة وســوف أكافئك . ولكنك ان تسترت على هؤلاء الفلاحين فلن أريك رحمة ! ســأجلدك جلدا شديدا .. يا كاتيشــــكا ! أعطه زجاجـــة فودكا ليتشجع ! » .

وذهبت الطاهيـــــة وجاءت بزجاجة ممتلئة وأعطتها للوكيل . ومع أن هذا كان يبدى الاحترام لســـيده ، فقد جرع الشراب ومسح فمه وراح يتكلم ، بعد ان قال لنفسه : « ليس ذنبى – على اية حال – انهم لم يقولوا كلمة ثناء عنه . وعلى ذلك فأننى سأقول الحقيقة مادام يطالبنى بها » .

وتذرع الوكيل بالشجاعة ، وراح يقول : « **أنهم يتذمرون يا ميخائيل سيمنوفيتش .. أنهم يتذمرون بشكل مخيف !** »

– ولكن ماذا يقولون بالضبط ؟.. قل لى !

– **شىء واحد يقولونه جميعا ، وهو أنك لا تؤمن بالله .**

فانفجر الناظر بالضحك ، وسأله قائلا : « من منهم يقول ذلك ؟ » . فقال : « كلهم يقولون ذلك . أنهم يقولون – فى الحقيقة – أنك تخدم الشيطان » .. فازداد الناظر ضحكا وقال : « ان هذا بديع . والآن قل لى ماذا يقـــول كل منهم على حدة عنى ؟.. ماذا يقول صاحبنا فاسيلى – مثلا – عنى ؟ »

وكان الوكيل حتى الآن محجما عن أن يشى بأصدقائه . أما وقد كان بينه وبين فاســـيلى ثأر قديم ، فقـــد انطلق يقول : « ان فاسيلى يلعنك أكثر من الجميع » .

– اذن قل لى : ماذا يقول ؟

– **أننى خجل من أن أردده ، ولكنه يأمل فى أن تصل الى نهاية تعيسة يوما ما .**

فقال الناظر : « أحقا يقول هكذا ، ذلك الشاب ؟ لا بأس ، فان يتسنى له أبدا أن يقتلنى ، لأنه لن تتاح له الفرصـــة لأن يضع يده على . حسنا جدا ، أيها الصديق فاسيلى ، لسوف نصفى أمورنا معا .. وماذا يقـــول ذلك الوغد تيشكا ؟ »

– **الواقع أنه ما من احد يقول كلمـة طيبة عنك .. كلهم**

يلعنونك ويتفوهون بكلمات التهديد والوعيد .
– وماذا عن بيتر ميتشيف ؟.. ماذا يقول ؟.. اقسم أن الوغد العجوز كان – هو الآخر – أحد اولئك الذين يلعنونني.
– كلا .. لم يفعل ذلك يا ميخائيل سيمنوفيتش .
– ماذا يقول اذن ؟
– انه الوحيد بينهم الذى لم يقل شيئا على الاطلاق ، فهو كثير العلم بالنسبة الى أى فلاح ، وقد تملكنى العجب حين رأيته اليوم .
– لماذا ؟
– بسبب ما كان يفعل .. لقد كان الآخرون يعجبون منه كذلك !

وتساءل الناظر : « وماذا كان يفعل ؟ » .. فأجابه الوكيل : « كان يفعل شيئا فى غاية الغرابة .. كان يحرث الجزء المعشب من الحقل ، وحينما ذهبت الى ناحيته خيل الى اننى أسمع شخصا يرتل بصوت خافت رخيم ، فى حين كان ثمة فى وسط سهم المحراث شىء مشتعل » . وهتف الناظر : « ماذا ؟ » .

– كان هذا الشىء مشتعلا كلسان من نار . وحين اقتربت ، رأيت انها شمعة من النوع الذى يباع بخمسة كوبيكات ، وأنها مثبتة فى سهم المحراث .. وكانت الريح تهب ومع ذلك لم تنطفىء الشمعة !
– وماذا قال ؟
– لم يقل شيئا ، سوى أن حيانى تحية عيد القيامة حين رآنى ، ثم بدأ يرتل من جديد . وكان يلبس قميصا جديدا ، ويرتل تراتيل القيامة وهو يحرث . وقد أدار المحراث عند نهاية الاخدود وهزه ؛ فلم تسقط الشمعة . نعم . لقد كنت قريبا منه جدا حين هز المحراث ورفع المقبضين . ومع

ذلك ، ففى كل الوقت الذى كان فيه يدفع المحراث ، ظلت الشمعة مشتعلة كما كانت أولا !

ـ وماذا قلت له ؟

ـ لم أقل له شيئا ، ولكن بعض الفلاحين الآخرين جاءوا وبدءوا يضحكون عليه ، قائلين له : « تعال !.. ان ميتشيف سيقضى قرنا يفكر فى موضوع الحرث فى الاسبوع المقدس !

ـ وماذا قال عن ذلك ؟

ـ لم يقل سوى : « على الأرض السلام وبالناس المسرة » . ثم انحنى وراح يحرث ، وهو يمس جواده .. وراح يرتل بينه وبين نفسه فى صوت خافت . وظلت الشمعة طول الوقت مشتعلة ولم تنطفىء أبدا !

وكف الناظر عن الضحك ، ونحى الجيتار جانبا ، ومال برأسه على صدره ، وظل غارقا فى التفكير . ثم طرد الطباخة والوكيل ، وظل جالسا وقتا طويلا . وما لبث ان ذهب خلف ستار غرفة النوم ، واستلقى على السرير ، وراح يتأوه ويئن كعجلة تئن تحت حملها . وبينذاك ، ذهبت زوجته اليه وراحت تستعطفه مرة أخرى ، ولكنه ظل وقتا طويلا لا يجيبها . ثم قال أخيرا : « **هذا الرجل قتلنى !** »

وظلت زوجته تتوسل اليه قائلة : « اذهب وأطلق سراح الفلاحين . لا شك أن هذا أمر بسيط . فكر فى الاشياء التى فعلتها دون أن تخاف . فلماذا اذن تخاف من ذلك الآن ؟ »

.. ولكنه لم يزد على ان قال : « **هذا الرجل قد قهرنى . لقد تحطمت . اذهبى وانت مازلت سليمة ، فلن تفقهى هذا !** »

وهكذا ظل راقدا هناك .

ولكنه قام فى الصباح وذهب الى عمله كالمعتاد . على انه لم يكن ميخائيل سيمنوفيتش الذى كانه من قبل ، بل بدا واضحا انه أصيب بصدمة فى القلب . وبدأت تنتابه

نوبات من الحزن ، فكان يظل مصغيا الى لا شىء ، ويجلس فى بيته فى سبات عميق . الا أن سلطة وظيفته لم تستمر بعد ذلك . فحين حل عيد القديس بطرس ، جاء المالك ليزور ضيعته . وفى اليوم الاول استدعى ناظره ، ولكن الناظر كان يرقد مريضا .. واستدعاه مرة أخرى فى اليوم الثانى ، ولكنه كان ما يزال يرقد مريضا . وحينئذ علم المالك ان ميخائيل قد اكثر من الشراب ، فعزله من وظيفته . وما فتىء ملازما منزله ، لا يقوم بأى عمل ، وهو يزداد حزنا . وكل ما كان يملكه شرب به خمرا وتردى تماما . وقد عاش بعد ذلك أقل من سنة ، ومات أخيرا من « الفودكا » .

تمت

بلاج المعمورة

- كبائن وشاليهات معلقة تحوطها المياه الزرقاء والخضرة اليانعة ، لمن يريد الاستئجار ..
- قطع أراضي من تقسيم المعمورة للبيع على أقساط طويلة الأجل ، لمن يريد اقامة فيلات أنيقة أو مبانى استغلالية عليها ..
- وقد أعدت جميع المرافق من طرق وشبكات الكهرباء والمياه النقية والمياه العكرة لرى الحدائق

فأسرعوا للتمتع بعروس البحر

المؤسسة المصرية للتعمير والإنشاءات السياحية "المعمورة"

اسكندرية : ٢٧ طريق الجيش بالشاطبى القاهرة : ٧ شارع الشوازلى

تليفون ٦٢٥٠١٥ / المعمورة ت ٦٢٨٤٠ تليفون ٤١٣٥٠